جان فيركوتير

مصر القديمة

ترجمة : ماهر جويجاتي



دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع

١٧
كتاب الفكر

مصر القديمة

الطبعة الأولى
القاهرة - ١٩٩٣



القاهرة - باريس

القاهرة: ش هشام لبيب - رقم ٤٢/٢٥
مدينة نصر - المنطقة الثامنة

تليفون: ٢٧٣٥٠٧٤

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
البعثة الفرنسية
للأبحاث والتعاون
قسم الترجمة - القاهرة

چـــان ڤيركوتيــر

مصـــــر القديمـــة

ترجمة : ماهر جويجاتى



ترجمة كتاب

QUE SAIS-JE ?

L'Egypte ancienne

JEAN VERCOUTTER
Membre de l'Institut

Treizième édition corrigée

101e mille

108, boulevard Saint-Germain, 75006 Paris



الباب الأول

مصر فى الزمان والمكان

١ – مصر وعالمنا المعاصر

فى زمن استحوذت فيه على عقولنا أكثر الأبحاث العلمية تنوعاً، بما تحفل به من تباشير ووعود، وفى عصر تعانى فيه أفكارنا من هموم الحياة المادية ومن عدم اليقين بالنسبة للمستقبل، فإنه قد يبدو من المفارقات الغريبة أن يهتم المرء بمصر القديمة – رغم البعد الزمنى السحيق الذى يفصلها عنا. لقد انقضى أكثر من خمسة آلاف سنه منذ حكم الفراعنة الأوائل مصر، بعد أن توحدّت. ومرّ عشرون قرناً تقريباً منذ أن اضمحلت هذه الحضارة واندثرت إلى الأبد. تُرى، ما الذى يستهوينا فى هذا التاريخ القديم – بل الأقدم فى العالم؟

إن قدم الحضارة المصرية فى حد ذاته هو أمر على قدر كبير من الأهمية. فلم تعرف مصر انفصالاً بين حضارات عصر الحجر المصقول والعصر التاريخى، فالمرحلة الأولى تقود إلى الثانية.

وعندما بدأت مصر تاريخها المكتوب، حوالى عام ٣١٠٠ قبل الميلاد، كان وراءها تجربة إنسانية طويلة، فتم بشكل نهائى اكتساب رقعة الأرض الزراعية، وتشكلت عناصر الديانة المصرية، وتثبتت لمصر لغتها وكتابتها، وتوطدت مؤسساتها الرئيسية. ومن ثم يمكن اعتبار عام ٣١٠٠، تاريخا اصطلح عليه، تماماً كما اصطلح على اعتبار عام ١٣٩٥م بداية العصر الوسيط فى أوروبا. والواقع انه من الصعوبة بمكان أن نحدّد تاريخاً لبدايات الحضارة المصرية التى تختلط بميلاد المشهد البشرى فى مصر بعد أن وضع الإنسان يده على وادى النيل. ورغم أن البرونز كان معروفا فى زمن الدلوة الحديثة (١٥٠٠ ق.م)، فقد ظلّ المصريون يجيدون قطع الظرآن ويستخدمون فى طقوسهم الدينية نفس السكاكين المصنوعة من الحجر المصقول، تماماً كما كان يستخدمها آخر الرجال من أبناء العصر «الإنيولوثى» (الحجرى النحاسى) فى وادى النيل. وكان الكهنة الجنائزيون يتبرعون بنفس العبارات التى تناقلها أسلافهم البعيدون شفاهة، قبل ظهور الكتابة. ومن هنا، فإن تاريخ مصر يشكل أطول تجربة إنسانية حضارية، إذ يمتد من الألف الرابع على أقل تقدير حتى العصر المسيحى. وطوال هذه الحقبة الطويلة جداً، ظلت جماعة من البشر تتحدث نفس اللغة، وتعتنق نفس التصورات الذهنية عن الحياة الدنيا والآخرة، وتعيش فى ظل نفس القوانين. ألا تعتبر دراسة هذه الحضارة

ومقارنتها بحضارتنا المعاصرة، من الأمور المثيرة حقاً؟ فيما تغيّر الإنسان منذ هذه الأزمنة الغابرة (إن كان حقاً قد تغير)؟ هل هناك تطور للحضارات، أو بالأحرى حياة للمجتمعات البشرية على غرار الأفراد: ميلاد، ونمو، ونضج ثم موت؟ وهل الموت هو المصير المحتوم الذي ينتظر كافة الحضارات؟ كيف تولد الحضارات وكيف تختفي؟ أسئلة لا تستطيع دراسة مصر القديمة، أن تجد لها بكل يقين، رداً شافياً، إنما يكفيها أنها طرحتها. إن الحضارة المصرية بالنسبة لكل شخص مهتم بالإنسان، تظل مصدر معلومات لا يمكن تجاهله. وتظل هذه الحضارة جديرة شأنها شأن الحضارتين الإغريقية والرومانية القديمتين - بأن تكون إحدى ركائز النزعة الإنسانية الحديثة.

بيد أن ما يثير اهتمامنا بالحضارة المصرية ليس فقط قدمها، ولكن أيضاً استمراريتها وتواصلها. ففي أوروبا وأمريكا تتعاقب الحضارات أيضاً، ولكنها تختلف عن بعضها البعض، فيفصل بين كل حضارة وأخرى صدع عميق: الغزو الروماني للعالم الكلتي والغزوات الكبرى للعالم اللاتيني، وغزو أسبانيا للأمريكتين الوسطى والجنوبية، الخ.. ففي كل مرة يعود التساؤل حول جوهر الحضارة ذاته إلى طرح نفسه على بساط البحث، والمجتمع البشري الذي يتشكل في أعقاب هذه التقلبات لا يشبه المجتمع الذي سبقه. أما في مصر فإن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث،

ومنذ بداية العصر الحجرى الحديث وحتى السيطرة الفارسية والغزو المقدونى، وتاريخ مصر يسير فى مجرى منتظم. ومما لاشك فيه أن البعض قد بالغ من الظاهرة التى شكلتها حضارة عظمى، ولدت ونمت فى عزلة تامة، كما يعتقد البعض. لقد كان هناك تسلل أجنبى ومؤثرات خارجية، ولكن كل ذلك لم يكن من القوة بحيث يؤثر فى الطابع الأصيل للحضارة المصرية. فمصر الدولة الوسطى هى السليلة الشرعية للدولة القديمة. كما ظلت مصر بعد غزو الهكسوس هى هى كما كانت دائماً. هذه الاستمرارية الفريدة فى بابها، خاصة عندما نفكر فى الزمن الذى استغرقته، ترجع فى الجانب الأكبر منها إلى ارتباط الحضارة المصرية ارتباطاً وثيقاً بمجتمع جغرافى: هو وادى النيل. ومهما قال البعض أو ذهب فى ظنونه، فإن مصر لم تستورد حضارتها. ولدت حضارة مصر فى وادى النيل ذاته، وهى حضارة نيلية إفريقية، فى جوهرها، وهذا ما أعطاها قوة هائلة، فلقد تكيفت بالفعل تكيفاً لصيقاً بالإطار الجغرافى الذى انبثقت منه والذى أسهمت فى نفس الوقت فى خلقه. ومن ثم كان على الغزاة الذين خاطروا وجاءوا إلى وادى النيل، فى فترات الضعف أو الفوضى، إما أن يندمجوا على جناح السرعة أو أن يُلفظوا إذا تعذّر عليهم التكيف مع ضروريات البلاد. وكانت استمرارية الحضارة فى مصر ذات فائدة عظيمة للوصول إلى معرفة ثاقبة بتاريخ العالم. فهى لا تلقى الضوء فحسب على الحياة القديمة فى القارة الإفريقية التى بدونها لما عرفنا عنها

شئ، بل إنها تسمح لنا بدراسة وتأريخ بعض الثورات التقنية أو الأخلاقية التى آثرت فى البشرية فى عصورها القديمة. فمنذ بداية استخدام المعادن والتحسينات التى أُدخلت على الزراعة وتربية الماشية وتقنيات البناء والتشييد وصناعة النسيج والرى، ومنذ اختراع الدقة، ومنفاخ الحدّاد، واستخدام الحصان وصولاً إلى ظهور الإصلاحات الأخلاقية فى الديانة الوثنية وانتشار المسيحية، فإن كل الأحداث، صغيرها وكبيرها، والتى رسمت طريق التطور فى الشرق القديم أو فى العالم الكلاسيكى، تركت بصماتها فى مصر.

وأخيراً، فإن مصر لا تفرض نفسها على فضوإنا بسبب قدم تاريخها واستمراريته فحسب. إنها بسحر إنسانيتها قد بلغت العالمية، فحضارتها، وهى الأكثر عراقة فى العالم، هى أيضاً من أكثرها اكتمالاً. وحتى فى أيامنا هذه يميل البعض إلى النظر إلى مصر على أنها حضارة غريبة، تجمدت في سكون لا أكتراثى ولا إنسانى. ولكن مصر شئ آخر، فهى خلافاً لهذا التصور، تمثل إنسانية عميقة جديرة بشدّ اهتمامنا. لقد سعت مصر إلى البحث عن إجابات للمعضلات التى مافتئت تتسلط على فكر الإنسان، فعلى امتداد تاريخها الذى يناهز الأربعة آلاف سنة، عانت مصر من شتى صروف الحياة التى تصيب أى مجتمع بشرى، من حروب أهلية وفوضى ومجاعات وغزوات أجنبية وصراعات دينية، فلم

تجنبها الحياة شيئاً. لقد عرفت مصر كل شيء، القلاقل الاجتماعية أو الاضطرابات الدينية على حد سواء، وتقاذفها الإيمان والشك، كما بذلت كل المحاولات للإفلات من مصير الإنسان المحتدم: فارتعدت أمام الموت وحاولت قهره، واليوم ربما بدت محاولاتها هذه صبيانية، ولكن ما يمنعنا من تصور ذلك هو العظمة الراسخة لآثار مصر وآلهتها الجنائزية بملامحها الجامدة التى تثير القلق.

وهكذا فإ مصر جديرة بأن نتعرف عليها من خلال الدراما الإنسانية التى يمثلها تاريخها، هذا التاريخ الذى دوِّن طوال هذا الزمن على مختلف الآثار التى ساعد مناخ مصر على حفظها حتى وصلت إلينا. فقبل الإغريق بأكثر من ألفى سنة عمد الفن المصرى، ربما بشكل عضوى، ولكن بكفاءة، إلى تمجيد الإنسان وعمله وآلامه وأفراحه. إن الأقنعة التى صنعها المثالون المصريون لملوكهم وخلقّوها لنا، والتى يبدو بعضها مهيباً، وتنم ملامح بعضها الآخر عن الدعة، أو تكشف أحياناً عن الألم والمأساة، هى أقنعة تشير إلى قوة الملاحظة التى عرف هؤلاء المثالون كيف ينظرون من خلالها إلى الإنسان ويفهمونه.

كما تشهد هذه الأقنعة على دراما الإنسان وقد سيطر على عمله، أو على العكس سحقه هذا العمل، بل وأضحى غير أهل لمهمته. ولم يكتفِ المصريون بملاحظة الإنسان وحسب، بل امتدَّ بصرهم بالملاحظة إلى كل ما يحيى من حولهم: الثدييات والطيور

والأسماك بل والنبات أيضاً، وقد ردّ إليها الفن المصرى حياة متدفقة. أما الأدب المصرى، وإن كان أفقر من الأدب الهلليني بمراحل، إلا أن ذلك لا يعنى أنه عديم الأهمية. فقد توصّل إلى أساليب لازالت تفتننا برغم ما يفصلنا عنه من زمن شاسع.. وهكذا أثْرت مصر بفنها تراث الإنسانية قاطبة ولعبت دوراً فى التاريخ العالمى لا يجب أبداً الإقلال من شأنه. فإن كانت مصر لم تأخذ من الآخرين سوى القليل إلا أنها أعطت فى المقابل الكثير، وما اصطلح على تسميته بالعالم الكلاسيكى، ما كان ليصبح ما كان عليه لو لم تسبقه مصر القديمة بزمن طويل لتشق دروب الحضارة. وإذا كان من الصعب معرفة مدى تأثيرها على الحضارة اليونانية الوليدة، إلا أنه لا يمكن إنكار تأثيرها على نمو هذه الحضارة. ولم يفت هيرودوت بالتحديد أن يشير إلى هذا الأمر. فقد انتقلت عن طريق الإغريق بعض المفاهيم المصرية القديمة إلى حضارتنا الغربية، ومن ثم كان من حق مصر علينا أن نعرفها ولو باعتبارها مهد أجدادنا الأولين.

٢ – معرفة مصر

أقدم الحضارات فى العالم، هى أيضاً إحدى الحضارات التى لم نعرفها إلاّ منذ عهد قريب، إذ جاء «اكتشافها» قبل مايزيد قليلاً على القرن من الزمن، وهو مايعنى أن علم المصريات لايزال علماً

حديث العهد. فلم يتسنَّ لنا معرفة اللغة المصرية إلا منذ مايقرب من ستين سنه.. كذلك لم نلمّ بعد بميدان علم المصريات بأكملة، فلازلنا في مرحلة الاستكشافات، وتتواصل الحفائر بانتظام وتمدنا سنوياً بوثائق جديدة. ويجرى نشر ماسبق جمعه من آثار بشكل منهجي منسق. وطالما لم نصل بعد إلى معرفة كل المصادر التاريخية فلا يزال أملنا كبيرا في الوصول إلى اكتشافات جديدة. بيد أن ما تجمع بين أيدينا من معلومات يكفي للشروع في كتابة تايرخ الحضارة المصرية في خطوطها العريضة. ولم يكن في مقدورنا أن نعرض هذه الصورة الإجمالية عن الحضارة المصرية القديمة، على إيجازها، لولا اكتشافات **«جان فرانسوا شمبوليون»** Jean - François Champolion (١٧٩٠ - ١٨٣٢) مبدع علم المصريات. وكان من النتائج المثيرة لمغامرات نابليون، أنها شدّت انتباه العقول المتعطشة إلى المعرفة إلى الشرق الأدنى المصري. ويمكن القول دون مبالغة أن إعادة اكتشاف مصر القديمة يرجع إلى عام ١٨٠٩ مع نشر كتاب **«وصف مصر»** Description de l'Égypt الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨. لقد احتوى هذا المؤلف الهائل على مواد ومعلومات جديدة، في نفس الوقت الذي بدأت فيه الحركة الرومانسية تحيي ذوق الماضي وذوق الشرق. وليس من قبيل المصادفة أن «ديلاكروا» Delacroix و «بيرون» Byron و«لامرتين» Lamartine على سبيل

المثال لا الحصر، كانوا معاصرين لشمپوليون، وكانوا مثله مشدودين إلى عالم الشرق. وبطبيعة الحال لم يكن كافياً أن تتوفر الظروف المواتية، وأن يتوصل علماء البعثة الفرنسية في مصر بفضل علمهم الرائع الدؤوب إلى جمع المعلومات اللازمة لإنجاز هذا الاكتشاف، بل كان الأمر يحتاج أيضاً إلى العبقرية. وكان شمپوليون يمسك هذا الوهج الذي لا غنى عنه، فقد كان شغوفاً بمصر متحمساً لها منذ نعومة أظافره. وانكب يتعلّم بجد كل مايشفي غليل ما يراوده من شغف: أن يلمّ بتاريخ مصر. وفتح له تكوينه الكلاسيكي الطريق أمام المصادر اليونانية واللاتينية. ثم زاد عليها بفضل جهده الدؤوب، معارف متخصصة كان يدرك مدى فائدتها: ففي القرن السابع عشر برهن الأب «كيوشر P. Kircher»، وهو من الآباء اليسوعيين، على أن اللغة المصرية الكلاسيكية، لاتزال حية من خلال اللغة القبطية التي ظلت على أيامه لغة الحديث بين رهبان مصر، وظل الرهبان يستخدمونها حتى القرن التاسع عشر. ومن ثم تعلّم شمپوليون اللغة القبطية وأضاف إليها دراسة العربية والعبرية. ألا يتحدث شعب مصر اللغة المصرية وألا يعتبر الكتاب المقدس أحد أهم مصادر تاريخ مصر؟ وترشيحاً لهذه الدراسات تعلّم السريانية والأثيوبية و«الكلدانية» (الآرامية). وهكذا واجه مشكلة المشاكل، وهي فك الرموز الهيروغليفية، وقد تسلّح لها أحسن تسليح.

كان أحد قواد بونابرت الفرنسيين قد اكتشف في دلتا النيل كتلة من البازلت الأسود نقش على سطحها نص مدون بثلاثة خطوط مختلفة. هذه الكتلة الحجرية المعروفة اصطلاحاً بحجر رشيد نسبة إلى المكان الذى عثر عليها فيه، نشرت في كتاب وصف مصر. وعلى الفور صارت محل اهتمام الدوائر العلمية بالنظر إلى أهميتها. وفي واقع الأمر كان أحد الخطوط الثلاثة، وهو الخط اليوناني معروفاً: فأماط اللثام عن مرسوم صادر عن بطليموس الخامس إبيفانوس (الظاهر). أما الخطان الآخران، فكان يتكون أحدهما من علامات تشبه تلك التي تشاهد على سطوح المباني المصرية التي حفظها الزمن وهو الخط الذى يعرف اصطلاحاً منذ إكليمندس السكندرى بالخط الهيروغليفي، (علامات الكتابه المقدسة) أما الخط الآخر - وهو مختلف كل الاختلاف، مع وجود بعض أوجه الشبه بينه وبين الخط العربي: فلابد أنه كان الخط الديموطيقي، وهو خط مختصر شاع استخدامه في الوثائق الشعبية.

وأقرّ الجميع على الفور وبحق، أن النصين الهيروغليفي والديموطيقي هما بكل بساطة ترجمة للنص اليوناني. ويبدى أن المشكلة بسيطة: فالمطلوب قراءة وفهم لغة مجهولة تُرجم إليها نص مفهوم. وبالنظر إلى أن النصين المصريين لم يتركا فواصل بين الكلمات شأنهما شأن النص اليوناني - كان لابد من التوصل إلى

موضع كل كلمة ومعناها ومحلها في الإعراب. لقد وقفت نخبة من عقول هذا العصر الثاقبة عاجزة أمام هذه المشكلة السهلة الحلّ في ظاهرها. زد على ذلك، أن المشكلة لم تطرح نفسها بالبساطة التي عرضناها لها. فبداية النقش الهيروغليفي كان مهمشماً والباحثون يجهلون عدد السطور الناقصة. أما النص الديموطيقي فكان وحده سليما. بادئ ذي بدء، تصدى «أكربلاد» Akerblad و «سيلفستر دي ساسي» Sylvestre de Sacy لهذا النص الأخير، وتوصلا إلى تحديد موضع أسماء بطليموس في النص، ولم يذهبا إلى أبعد من ذلك. وانكبّ «يونج» Young ، الطبيب والفزيائي البريطاني الذائع السيط ، على النص الهيروغليفي، فتوصل هو أيضاً إلى تحديد موضع إسم بطليموس. واستخدم الأصوات التي اعتقد أنه قد استطاع استنتاجها، لمحاولة قراءة باقي النص، ولكن دون جدوى. عندئذ تدخل شمپوليون الذي يتابع في شغف أبحاث من سبقوه. فمسألة المنهج هي التي كانت تقف في واقع الأمر حائلاً دون تقدمهم. هل الكتابة المصرية تصويرية، فتشير كل علامة فيها إلى صوت واحد، كما هو الحال في اللغات الحديثة. وما هي هذه الأصوات؟ وهل هي أبجدية أم مقطعية؟ ان شمپوليون نفسه قد تردّد طويلاً. واكتشف بداية إن الحروف الساكنة وحدها هي التي تكتب مع إغفال الحروف المتحركة: شأنها في ذلك شأن العبرية والعربية القديمة. فلا يتبقى

من الكلمة سوى هيكلها العظمى، ومن فرط ما تلمّس طريقه، ومن كثرة ما قلّب المسألة فى ذهنه، لاحت له الحقيقة فجأة. إذ كان النص المصرى يحتوى بكل وضوح ورغم ما أصابة من تشويه على عدد من العلامات أكثر بكثير من النص اليونانى، وهى ظاهرة كانت تحتاج قبل كل شئ إلى تفسير. وأدرك شمپليون على الفور أن هذه العلامات الزائدة مردّها إلى حقيقة أن المصرية القديمة كانت فى آن واحد تصويرية وصوتية. أو كانت بعبارة أخرى، تضم علامات تقرأ وأخرى لا تقرأ – وهدفها تحديد معنى الكلمة، فحسب. شرع شمپليون يطبق ماتوصل إليه من اكتشافات، فقرأ أول ما قرأ جميع أسماء الملوك اليونانيين، فى ترجمتها المصرية، ثم تصدى بعد ذلك للكلمات المصرية، بمعنى الكلمة. واعتماداً على إلمامه باللغة القبطية، لم يتوصل فحسب إلى قراءة إسم رمسيس الشهير على أثر آخر، بل نجح أيضاً فى فهم معنى الإسم ويعنى «رع (إله الشمس) أنجبه»، وهكذا خطى الخطوة الفاصلة، فاستطاع أن يفهم الهيروغليفية (١٨٢٢). ومن الآن فصاعداً، انكب شمپليون على ماوقع بين يديه من نصوص، فعمل بنشاط منقطع النظير وتغلب على كل ما اعترضه من عقبات. وفى عام ١٨٣٢، بعد مضى عشر سنوات على اكتشافه الأول، وضع كتاباً فى قواعد اللغة المصرية وشرع فى إعداد قاموس، وجمع خلال رحلة قام بها إلى مصر مادة لمجموعة من المؤلفات عن آثار مصر

والنوبة، وأخذ يعد العدة للاستفادة من أعماله لإلقاء محاضرات فى الكوليج دى فرانس Collège de France، عندما وافته المنية وهو فى الثانية والأربعين من عمره، وقد انهكه ما بذله من جهد جهيد.

وحتى نوفى عمل شمبوليون حق قدره – إذ غالبا ما صدرت فى حقه أحكام مجحفة وغير منصفة – ينبغى أن نأخذ بعين الاعتبار مستوى معارف علم المصريات، قبل فك رموز الكتابة الهيروغليفية. فماذا كنّا نعلم عن مصر قبل عام ١٨٢٢؟ منذ أن أغلقت المعابد المصرية أبوابها فى القرن الرابع الميلادى اختفى كل من كان له القدرة على قراءة الهيروغليفية لتتحوّل كل الوثائق المصرية الأصلية إلى علامات صماء. فانحصرت معلوماتنا بالضرورة على ماكتبه المؤلفون الإغريق عن مصر، نذكر منهم هيرودوت وديودورس الصقلى واسترابون وبلوطارخوس. ويمكن أن نضيف إلى هذه المصادر بعض ماكتبه أباء الكنيسة، أمثال أكليفدس السكندرى ويوسابيوس القيصرى. ولا ينبغى بالطبع التقليل من أهمية هذه المصادر الكلاسيكية، فمن وسط هذه المؤلفات، يشدنا أحدها بصفة خاصة. ففى زمن أحد البطالمة، وضع كاهن مصرى يدعى «مانتون» تاريخاً لمصر تلبية لطلب الملك الإغريقى، ولو حفظ لنا الدهر هذا السفر كاملاً، لكان جليل الفائدة، نظراً لأن «مانثون» كان مازال يمتلك ناصية الهيروغليفية. وللأسف ضاع هذا المؤلف النفيس ولكنه تواتر إلينا على هيئة

شذرات مبعثرة وردت ضمن ما استشهد به بعض الكتاب كالمؤرخ اليهودى «يوسفيوس» و«سكستوس يوليوس» المؤرخ الإغريقى الملقب بالإغريقى والمختصر الذى أعدّه عنه يوسابيوس القيصرى. ومع ذلك فكل ما نعرفه عن هؤلاء الكتاب الأواخر إنما وصلنا من خلال المصنف الذى صنفه «چورچ السنسيلى» Georges le syn- cellc فى النصف الثانى الميلادى.

إن مؤلف مانتون كما وصلنا ليس سوى ظل لظل، والفائدة الوحيدة التى ندين بها له هو تقسيم تاريخ مصر إلى ثلاثين أسرة. ولا تمثل جميع هذه المصادر مجتمعة سوى أقل من القليل، إذ من الصعب أن نستفيد منها. وبالفعل لم يجمع أصحاب هذه المؤلفات ماتوصلوا إليه من معلومات، مباشرة وبدون وسيط، بل لم يتعد كاتبوه عن كونه مجموعة من «القيل والقال». ثم جاء اكتشاف شمپوليون ليغير من وضع المسألة، إذ اضحت الوثائق المصرية سهلة المنال، وصار فى الإمكان التحقق من صحة المصادر الكلاسيكسة واستكمالها. وشرعت مصر تولد من جديد.

وبفضل الأسس التى وضعها شمپوليون، أمكن لعلم المصريات أن ينهض، ومازال يواصل نهوضه، بالنظر إلى أنه لم يتم إلى الآن حصر الثروات التى قدمتها لنا مصر، ولا هو على وشك أن يتمّ، فمازالت مصر القديمة تدخر لنا اكتشافات، على غرار اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون واكتشاف دفنات تانيس – صان الحجر،

حاليا – في وقت لاحق، ومن ثمّ تظل مصر القديمة حاضرة – رغم كل مايبدو من مظاهر – فنراها تبعث إلى الحياة أمام أعيننا مع كل صدفة تقود إلى اكتشاف جديد.

ويتم نشر هذه الاكتشافات تباعاً في العديد من الدوريات الفرنسية وغير الفرنسية، وبالتدريج يزاح الستار عن حضارة كانت من الناحية العلمية في طيّ النسيان قبل قرن من الزمان، وهو مالا ينبغي أن يغيب عن بالنا.

وقبل أن نتطرق إلى تاريخ هذه الحضارة نرى من الضروري أن نرسم صورة للبلد الذى أنجبها، ونحن لا نرمي من وراء ذلك، تكريس عادات تقليدية متواترة، بل لأن معرفة الإطار الطبيعي، أمر ضروري لكل من يريد أن يفهم تاريخ مصر وعادات سكانها.

٢ – تاريخ أرض مصر

سعى العلماء على مرّ الزمان إلى الكشف عن مدى تأثير البيئة الطبيعية في المجتمع البشرى الذى يعيش فى كنفها. فقد سبق أن قال الإغريق بوجود مثل هذا التأثير، وكان هيبوقراط يميز بين ساكن المرتفعات بقامته الطويلة وشجاعة ووداعة طباعه وبين ساكن الأراضى المكشوفة القليلة المياه متوتر المزاج وجامد المشاعر وصعب المراس، ولكن لن نتورط فى هذا الضرب من التعميمات الجسورة، ومع ذلك فتأثير البيئة فى مصر واضح للعيان بماتركته

البيئة الجغرافية من بصمات، كما يتضح من الاتجاهات التى انتحاها تنظيمها الاقتصادى وتطورها السياسى، ويرجع الجانب الأكبر من أصالة حضارة مصر إلى أنها فريدة فى بابها من الناحية الجغرافية.

إلى أن أتى القرن التاسع عشر الميلادى، ومن بعده القرن العشرون، بتغييرات جوهرية فى حياة وادى النيل، فشُيدت السدود التى زادت أهميتها بمرور الزمن، فى الوقت الذى دخلت فيه وسائل المواصلات السريعة. لقد أثّرت عوامل جغرافية ثلاثة فى المجتمع المصرى: (١) مصر واحة.، (٢) مناخها هو مناخ إقليم الصحراء الكبرى (٣) طول الوادى عشرة أضعاف عرضه على وجه التقريب.

ومنذ جوتييه E. - F. Gautier، أضحت مقولة أن مصر واحة من المقولات التى لا يجادل فيها أحد، بل إن كلمة واحة ذاتها مصرية الأصل. ولكن نودّ التأكيد على أن مصر من واحات إقليم الصحراء الكبرى. ومن المعتاد أن ينال مدى تأثير هذه الحقيقة التاريخية على حضارة مصر أقل مما تستحقه من اهتمام. فالواحة ليست بقعة خضراء، فوق سطح أصفر فحسب، كما اعتدنا أن نتصورها من خلال خرائط الأطلس. إن وجود الواحة يرجع إلى مجموعة من المقومات الطبيعية والبشرية، ترتبط ارتباطاً وثيقاً، فإذا غابت إحداها غابت الواحة عن الوجود. وعدد

هذه المقومات ثلاثة من ظروف إقليم الصحراء الكبرى المناخية: فالواحة تحتاج إلى ماء وتربة يمكن استزراعها، وإلى العمل البشرى. فالماء دون تربة يمكن استزراعها يعطينا بئراً وحسب، وتربة يمكن استزراعها دون ماء هى صحراء وحسب. والماء والتربة التى يمكن استزراعها لا يعطيا شيئا بدون العمل البشرى، وحتى التربة الجيدة تحتاج إلى الرى فى مناخ يغلب عليه الجفاف. ومعجزة مصر الوحيدة هى أن النيل هو الذى قدّم معا الماء والتربة التى يمكن استزراعها. وما عدا ذلك فيعزى إلى الإنسان.. وقد نندفع بسرعة وبسهولة، فنتحدث عن الظروف الفريدة التى توفرت للحياة على ضفاف نهر النيل وننسى أن هذه الظروف قد خلقها الإنسان بفضل نظم الرى. ولاشك أن مصر هى «هبة النيل»، كما ظل الناس يرددون منذ أيام هيرودوت. بيد أن مصر هى من خلق البشر، أولاً وأخيراً. فالإطار الجغرافى يحمل منذ البداية بصمات الإنسان، فبدونه يظل ناقصاً غير كامل. ولكن البيئة الطبيعية تركت بدورها بصماتها على الإنسان. إذ ما أن تظهر الواحة إلى الوجود حتى تصبح شكلاً جغرافياً، بلغ حدا من التفرد، حتى أنه فرض بصماته على السكان.

فلنتناول بادئ ذى بدء كيف تحققت فى مصر المقومات الأساسية الثلاثة الضرورية لحياة الواحة. ثم ننتقل فيما بعد إلى بحث مدى تأثير حياة الواحة على المجتمع البشرى المصرى.

المياه : ترتبط حياة الواحة بمشكلة المياه، والنيل فى مصر هو صاحب الفضل فى حل هذه المشكلة. والنسق المعقد الذى يشكله نهر النيل ظل غير معروف حتى عهد قريب، ويكفى فى هذا المقام أن نعرف أن النهر الذى ينبع من البحيرات الاستوائية الكبرى، فيتمتع بناء على ذلك بتصريف من مياه الأمطار الاستوائية تظل منتظمة على مدار السنة. ومن الراجح أن المياه الوافدة من البحيرات الكبرى كانت ستصل إلى مصر بكميات غير كافية نتيجة ماتتعرض له من عمليات بخر أثناء جريانها فى أحواض النيل السودانى، لو لم تدعم بحصة إضافية من المياه المدارية ومن مياه الحبشة بصفة خاصة،. ويلعب الدعم الحبشى دوراً حاسماً بفضل هطول الأمطار الموسمية على هضبة الحبشة. ويقف هذا الدعم الحبشى وراء هذه الظاهرة التى تركت انطباعاً قوياً فى أبناء العالم القديم، نعنى بذلك فيضان النيل. وبالنظر إلى المسافة التى يقطعها الفيضان إذ يبدأ رحلته من المناطق المدارية بحلول مايو/ يونيو – إلا أنه لا يصل مصر قبل شهر يوليو. واعتباراً من هذا التاريخ يرتفع الفيضان من جراء المياه القادمة من الحبشة. (وتبلغ الأمطار حدّها الأقصى فيما بين يونيو واكتوبر. وهكذا فإن فيضان النيل هو فيضان صيف، وهو أمر له أهميته القصوى فى بلد يسوده مناخ صحراوى حيث تتركز درجات الحرارة القصوى المتوسطة والمطلقة فيما بين شهرى يوليو وأغسطس فتغمر المياه

تربه مصر فى فترة تهدد فيها الشمسس باصابة كل شئ بالجفاف. وخلال فصل الشتاء، يحافظ الدعم الاستوائى على انتظام مستوى النهر المنخفض فيوفر المياه اللازمة للأراضى المنزرعة، عن طريق رفع المياه بمختلف الوسائل (كما هو الحال فى جميع الواحات).

التربة . – لا يأتى النيل بالمياه وحسب، بل يأتى الفيضان محملاً بالطمى الذى انتزع من التربة البركانية بأعالى الحبشة. وفى مصر تساعد زيادة بطء مجرى النهر على ترسيب الغرين فوق الحقول عندما يغمرها النهر. إن الغرين بعد أن يضاف إليه الدُبال* – هو الذى يشكل تربة مصر ذات الخصوبة العالية حتى بات من الممكن فى الوقت الراهن أن تغل محصولين أو ثلاثة فى العام الواحد. ومن هنا ندرك الأسباب التى دفعت المصريين – بعد أن لاحظوا أن الفيضان هو واهب الماء والتربة معاً –الى تأليهه فى صورة الإله «جهبى»، ونظموا الأناشيد تكريماً له. ويقول أحدها: «تحية لك أيا «جهبى»، اخرج من هذه الأرض واحضر لتهب مصر الحياة. إنك تخفى مجيئك فى الظلمات (كان المصريون يجهلون موقع منابع النيل).. وتغطى أمواهك البساتين.. أنت واهب الحياة لكل ظمأن. عندئذ ارتفعت أصوات الأرض مهللة، فالبطون فى فرح وسعادة، والظهور تهتز من الضحك والأسنان تمضغ».

---

* الدُبال : مواد عضوية متحللة فى التربة. (المعجم الجغرافى بمجمع اللغة العربية)

الناس . — كما سبق أن لاحظنا لم يكن فى وسع الماء والتربة وحدهما أن يخلقا الواحة المصرية إذ كان الأمر يحتاج أيضا إلى عمل البشر. وتم إنجاز هذه المهمة منذ أن أصبح وادى النيل آهلاً بالسكان، إذ أن الجفاف لم يزحف فى حقيقة أمره على مناطق الصحراء الكبرى دفعة واحدة، إنما بالتدريج. وكلما اشتد المناخ جفافاً هبط جانب من السكان المقيمين فوق هضبة الصحراء الكبرى الشاسعة ليتجمعوا حول نقاط الماء، وبخاصة على مقربة من النيل، وهكذا يتقبل الوادى موجات متعاقبة من السكان. وهؤلاء السكان هم الذين ظلوا يشكلون صلب الشعب المصرى فى العصور التاريخية. وسنتناول فيما بعد بالدراسة سماتهم الأساسية.

ومن ثمّ توفّرت لمصر منذ الأزمنة الغابرة من تاريخ البشرية، العناصر الضرورية لتحى الواحة حياة مزدهرة، كما طبعت هذه الحياة بدورها مجمل مجتمع البشر بقسماتها الواضحة. ويشدنا شداً ثبات الشعب المصرى باعتباره «أقل شعوب العالم ثورية»، وهذه السمة ليست وهماً . فلنتذكر فى هذا الصدد أن النظام السياسى المصرى قد ظل على حاله على مدى أربعة آلاف سنة، مع فترات صاعدة وأخرى هابطة. لقد شجع على بروز هذه السمة حاجة البلاد إلى حكومة قوية سياسياً لتأمين الرى، إذ لا تتحقق الاستفادة المرجوة من فيضان النيل، إذا ارتفع مستواه أو انخفض أكثر من اللازم، ولكن من الضرورى فى المقام الأول أن

يكون توزيعه توزيعاً منتظماً. فعملية توزيع المياه هى أم المشاكل في كافة الواحات، ويحضرنا فى هذا الخصوص تشريع المياه في واحات شمال إفريقيا). وقد فرضت هذه المشكلة على مصر أن تقيم السدود وبصفة خاصة القنوات والجسور مع حسن صيانتها. ولا يمكن تأمين أعمال الصيانة هذه إلا بإقامة سلطة مركزية قوية، تستطيع أن تعرض أعمال الصيانة على مختلف المقاطعات. ومن ثم يرتكز النظام السياسى المصرى بأسره على ضرورة مادية وجغرافية، لا نظير لها فى المجتمعات الغربية. وكان شعور المصريين بهذه الضرورة شعوراً قوياً. إن أقدم ما نعرفه من تصاوير الملك، تمثله وهو يقوم بشق قناة. وكان الماء هو شغل سكان وادى النيل الشاغل. إن أول قائمة ملكية وصلتنا تسجل ارتفاع منسوب فيضان النيل، على رأس الأحداث، قبالة كل سنة، فحياة البلاد كانت رهناً بمستوى هذا المنسوب. بل من المحتمل أن الضرائب كانت تقدر حسب الفيضان. ولم يقف تأثير الجغرافيا عند هذا الحدّ، بل يمكن القول أن الحضارة المصرية قد سيطر عليها وسواس الماء. فالماء هو القربان الأمثل الذى يقدم للمتوفى. إن الرسائل الغريبة التى يبعث بها أحياناً الأحياء إلى الموتى يهددونهم فيها بحرمانهم من «سكب الماء»، إن لم يمتثلوا للأوامر الصادرة إليهم. فإلى هذا الحدّ كانوا يعتبرون الماء عنصراً حيوياً لا غنى عنه. كما أن نصاً جغرافياً يميز بين بلد وآخر حسبما كان

أهله يشربون ماء النيل أو ماء الآبار أو ماء الجداول أو مياه الأمطار. كما أن محرر نص آخر يقسمّ الآبار إلى أربعة أنواع مختلفة. وتبرهن هذه السمات على أن المصريين قد تأثروا بصفتهم من سكان الواحات سواء في حياتهم الإدارية أو في معتقداتهم الدينية أو أوصافهم، بل وفي لغتهم حيث تعرف اللغة المصرية أكثر من عشرين مصطلحاً للتعبير عن مختلف اتجاهات النيل ومسالكه. وقد دفعتهم هذه الصفة بالذات إلى تقدير الأرض الصالحة للزراعة حق تقدير، فأطلقوا على بلدهم «الأرض السوداء» («تاكمت») مقابل الصحراء المجدبة الحمراء. وليتجنبوا التعدّي على الأراضي الزراعية أقاموا قراهم في الصحراء إذ تعذر تجميعها فوق الرُبى، حماية لها من الفيضان. إن مصر بلد تتجمع فيها أماكن السكنى وهو مايعتبر سمة بارزة لمشهد الريف، ونتيجة لضرورة جغرافية، حيث فُرض على المصريين أن يحتموا من الفيضان دون أن يبددوا الأرض الصالحة للزراعة إلا في أضيق الحدود.

لقد طبعت مصر بواقع أنها واحة، كما طبعت حضارتها بمناخها الصحراوي في المقام الأول، ماعدا الشريط الساحلي في الدلتا. إن الهواطل الجوية* معدومة من الناحية العملية، (متوسطها ٣٢ مليمترا في السنة) والرياح جافة (عدا الرياح

---

* أو التساقط – وهو ما يسقط من ماء السماء على سطح الأرض في صور مختلفة كالمطر والثلج والبرد وغيرها.
مجمع اللغة العربية: المعجم الجغرافي (ص٢٠) (المترجم)

الشمالية). وتتميز درجات الحرارة اليومية بفارق شاسع بين درجات الحرارة في النهار وفي الليل، ووصل هذا التفاوت إلى ١٥ أو ١٦ درجة مئوية خلال فصل الشتاء. ومع ذلك لم يكن هذا المناخ الجاف هو المناخ الذي كان سائداً على الدوام في مصر فمنذ عام ٥٠٠٠ وحتى عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد، أي منذ بداية العصر الحجري الحديث وحتى عصر الأهرامات الكبرى، كان المناخ أكثر رطوبة، والسافانا منتشرة في الصحارى الحالية شرقي النيل وغربه. ويسّرت هذه الرطوبة النسبية الانتقال التدريجي من اقتصاديات الصيادين جامعي الغذاء إلى اقتصاديات المزارعين مربي الماشية. كما فتحت الباب أيضاً أمام عمليات التبادل بين آسيا وإفريقيا وبين النوبة ومصر على حد سواء.

وأخيراً، فقد ترك مناخ أعالي حوض النيل آثاراً عميقة في إكولوجيا (أي في علاقة الأحياء ببيئتهم) حوض النيل الأدنى. ولقد سبق أن لاحظنا أن الحياة في مصر مرتبطة كل الارتباط بالفيضان. إن مستوى الفيضان يحدده هطول الأمطار على مرتفعات الحبشة، حيث منابع النيل الأزرق والعطبرة والسباط. وإن الرياح الموسمية التي تهب خلال فصل الصيف قادمة من المحيط الهندي تغذي الهواطل التي تسقط على هضاب الحبشة من شهر مايو وحتى شهر سبتمبر لتصب في النيل الأزرق وروافد النيل الحبشية، فمن هنا ينطلق الفيضان. بيد أن الأمطار الموسمية غير

ثابتة، وبالتالى يصبح الفيضان متقلباً، سواء من حيث تاريخ بدايته أو من حيث مدته وحجمه. وهذا التقلب كظاهرة مناخية قد دفع سكان وادى النيل المصرى إلى أن يقيموا بالتدريج نظاماً للمقاومة، وصولاً إلى التحكم فى الفيضان تحكماً فعّالاً. فمن بين ثلاثين فيضان تمّ رصدها، تكاد تكون ثلاثة عشر منها فيضانات كافية. ومن ثمّ ينبغى التأهب تحسباً لفترات «نقص الفيضان»، لاسيما وأن تعاقب الفيضانات السيئة أمر وارد. واضطلعت السلطة المركزية بمهمة الاحتفاظ فى الشوّن الملكية بمخزون غذائى لمواجهة القحط. وإذا لم تؤمّن الحكومة فى الوقت المناسب أعمال صيانة النظام الدقيق المتحكم فى الفيضان، وهو نظام عرضة للأعطاب، فإن الفيضان يهدد باجتياح كل شئ والعودة بالوادى إلى ماكان عليه فى الأصل من أوضاع. فالنظام الطبيعى مشروط فى مصر بالنظام السياسى، والفوضى هى دائما مرادف للمجاعة.

وأخيراً، تركت تضاريس البلاد الجغرافية بصمات غائرة فى حضارة مصر. فلنتخيل أمبوباً طويلاً لدُناً، وقد جهّز أحد طرفيه بقمع مرشة، تلك هى صورة مصر. وهكذا ندرك أن سكان هذا البلد العجيب قد ميزوا بين الأمبوب، أى مصر العليا وبين القمع أى مصر السفلى. ولا يبلغ عرض الأراضى الزراعية قدراً معقولاً سوى فى الدلتا. وإذا انتقلنا إلى الوادى فنجد أن عرضه لا يزيد عن بضعة كيلو مترات، ورغم أن طول مصر يزيد على الألفى كيلو

متر، فإن مساحة الأراضي الزراعية ليست سوى ثلاثين ألف كم٢ (حوالى ٧ مليون فدان) أو ما يعادل مساحة بلجيكا مع بسطها على مايعادل ضعف طول فرنسا. وكان لهذه الوضعية أصداؤها على حياة البلاد السياسية والإدارية. لقد لاحظنا فيما تقدم نزعة الوحدة والاستقرار كمطلبين ملازمين لضروريات الرى وتنظيم الاقتصاد. وفى واقع الأمر فإن مصر شريط بالغ الطول ليس له من طريق سوى النيل، وكان يصعب على الملك أن يراقب السلطة المحلية التى قد تبعد عن عاصمته فى بعض الأحيان بما يزيد عن الألف كيلو متر، فيستدعى الوصول إليها أياما طويلة من الملاحة النهرية وذلك فى عصر كانت الجياد ذاتها غير معروفة. ومن ثمّ فما أن يصيب السلطة المركزية الوهن، حتى يتحول حكام الأقاليم، على الفور، إلى عواهل صغار مطلقى الصلاحيات. ومن ثم نرى أن تاريخ مصر ممزق بين نزعة تركيز السلطة السياسية استجابة لمتطلبات البلاد الحيوية ونزعة التفتيت التى ساعد عليها امتداد مصر الفائق الطول. ومن هنا نشأت أهمية «الأقليم» فى حياة مصر. فقد فُرض على الإقليم أن يعتمد فى حياته على جهوده الذاتية بالنظر إلى المسافة القصية التى تفصل بينه وبين المركز الإدارى، فمصر من حيث الضروريات الطبيعية، دولة على قدر كبير من تركيز السلطة المركزية، كما أنها تقوم فى نفس الوقت، على اللامركزية الإدارية. وكنتيجة ثانوية لهذة الأوضاع، تقدمت مصر

بخطى سريعة فى فنونالملاحة، حيث أن الطرق فى مصر قد اقتصرت على الطرق النهرية، فقد عمّ استخدام السفن، وأضحت ضرورية، ولو لمجرد العبور من شاطئ إلى آخر. بل يمكن أن نذهب إلى أن الديانه نفسها قد تأثرت بهذه الضرورة الطبيعية، فكان المصريون يعتقدون بالفعل أن الشمس تعبر السماء فى زورق. بل وعلى الصعيد التقنى أيضاً كان لهذا الممكن أصداؤه، فاهتدى المصريون إلى الدفّة ذات المرتكز ولكن فى المقابل جاءت العربة ذات العجل من خارج البلاد.

وأخيراً كانت مصر بفضل موقعها عند الطرف الشرقى من القارة الإفريقية نقطة التقاء العالم الآسيوى والمتوسطى بالعالم الإفريقى. وشرع هذا الموقع يؤثر على الحياة السياسية المصرية مع مطلع العصر الفرعونى، وإن لم تَتمُّ كل إمكانياته إلا بحلول العصر الحديث، فى أعقاب شق قناة السويس، وتنمية إفريقيا الجنوبية والوسطى، فأضحى وادى النيل والبحر الأحمر أكبر طرق العبور من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق الأقصى وإفريقيا إلى أوروبا. وفى حقيقة الأمر وكما أوضحنا، فقد فرض طول البلاد، سواء على الصعيد السياسى أم على الصعيد الإدارى، أن تتوسط العاصمة إلى حدٍّ ما البلاد، بحيث تصل سلطة فرعون إلى الوادى من أقصاه إلى أقصاه دون معوقات تذكر. ونزع هذا المركز الحيوى منذ العصر الثينى، بل ومنذ عصور ماقبل التاريخ على ما

يظن، إلى التمركز فى منطقة منف، على مقربة من مدينة القاهرة – الحالية. وبالفعل نجحت الإدارة الملكية انطلاقاً من هذه النقطة، فى مراقبة الدلتا وأعالى الوادى على حدّ سواء. وعندما أقام فراعنة الدولة الحديثة عاصمتهم فى طيبة كانوا يهدفون من بين ما يهدفون إليه، أن يقتربوا أكثر فأكثر من النوبة، بعد أن توسعت فيها مصر كثيراً وهى التى كانت تمدّ مصر بالوسائل الضرورية – من بشر ومواد أولية – لتحقيق السياسة التوسعية التى تبنتها. ولسوء الحظ كان موقع طيبة ينطوى على عقبة كأداء بالنظر إلى بعدها الكبير عن الدلتا. غير أن مصر بدأت مع بداية الدولة الحديثة تعانى من الأضرار الناجمة عن موقعها عند ملتقى طرق العالم. عندئذ كانت امبراطوريات آسيا فى أوج نشاطها التوسعى وشرعت تصطدم بمصر. ولكن سرعان ما لاحت فى الأفق مسيرة الموجة الهند و– أوروبية الثانية، قادمة من الشمال إلى الجنوب، فحطّت هى الأخرى رحالها عند السواحل المصرية. وهكذا بدت مصر مهددّة من ناحيتين عند جبهتها المتوسطية. واضطرت دفاعاً عن نفسها أن تحشد قواتها فى الدلتا. وهكذا نشهد، اعتباراً من الأسرة التاسعة عشرة والأسرة العشرين بصفة خاصة، تحركاً لمركز ثقل مصر الذى جنح إلى الاستقرار فى الدلتا. ويمكن القول أن الانحطاط البطئ الذى بدأ فى هذه الفترة يرجع إلى عجز مصر عن إصلاح نظمها الداخلية. ولقد اقتضت الظروف أن يكون

مركزها السياسى أقرب مايمكن من البحر المتوسط الذى أضحى مفترق طرق العالم القديم، كما اقتضت الظروف أن تتواجد مصر عنده بكل ما أوتيت من قوة، أى بكل ما تجلبه من موارد تجنيها من إفريقيا. وإذا كان الفراعنة قد أدركوا ضرورة إقامتهم فى الدلتا، فقد عجزوا عن الحفاظ على وحدة البلاد التى كانت تستطيع وحدها أن تمكن مصر من الاضطلاع بدور فعّال فى العالم الجديد الذى بدأ يتضح للعيان. ومن ثمّ فإن ظرفاً جغرافياً - وهو وجود مصر ضمن عالم البحر المتوسط - قد فرض انتقال عاصمة البلاد صوب الشمال قدر المستطاع. وإضافة إلى ذلك، فإنّ ظرفاً جغرافياً آخر - وهو طول القطر - البالغ الامتداد - قد أعاق الفراعنة عن حكم البلاد حكماً فعّالاً من مقرهم فى الدلتا وأن يبسطوا نفوذهم بصفة خاصة على الممتلكات الإفريقية، مصدر قوة مصر. وبعد أن انحصرت مصر فى واجهتها المتوسطية فحسب، لم يعد فى وسعها سوى أن تلعب دوراً ثانوياً على مسرح التاريخ فى العالم القديم، ومن ثم زخر عالم مصر بالمفارقات، فنرى جدب الصحراء يبرز ثراء الوادى، ويقف امتداد البلاد الذى لا حدّ له كنقيض للوحدة التى فرضتها ظروف الحياة. ويشكل هذا العالم «خلفية» فريدة فى بابها للمجتمع الذى كان مقدّرا له أن ينشأ على أرضها، ليزدهر قبل أن يندثر. وكان هيرودوت يدرك كل ذلك جيداً حين استهل كتابه فى التاريخ بهذه العبارة: «إن

المصريين الذين يعيشون فى ظل مناخ فريد، وعلى ضفاف نهر ينفرد بخاصية تميزه عن غيره من الأنهار، قد اتسموا أيضاً فى كل شئ تقريباً، بعادات وتقاليد هى على النقيض من عادات وتقاليد غيرهم من بنى البشر». وكان من الضرورى التأكيد على أصالة هذه البيئة حتى يمكن فهم هذا المجتمع الذى سوف نتناول الآن عناصره البشرية بالدراسة.

٤ - السكان

منذ العصر الحجرى القديم الأدنى، وكلما عدنا إلى الوراء فى غياهب ماقبل تاريخ الإنسانية بصفة عامة، نجد أن الإنسان قد سكن وادى النيل، ولكن من الصعب معرفة الأصول العرقية لسكان الوادى الأوائل. فالنذر القليل الذى وصلنا من بقايا العظام البشرية لا يساعد، فى واقع الأمر، على التوصل إلى نتائج لا تقبل الجدال حول أصولها الإثنية، كما لا يسعنا أن نعرف مدى استمرارية هذا الفرق بين غيره من الأعراق التى سكنت وادى النيل خلال العصر الحجرى الحديث. وبالفعل فإن نهاية العصر الحجرى القديم الأعلى - حوالى عام ١٥٠٠٠ ق.م تتزامن ومرحلة ساد فيها مناخ جاف مناطق إفريقيا الشمالية والشرقية. عندئذ، فإن القبائل الرحل التى كانت ماتزال هائمة فى سافانا الصحراء الكبرى، قرب نهاية العصر الحجرى القديم وخلال العصر الحجرى

القديم وخلال العصر الحجرى الوسيط، شرعت تميل إلى الهجرة، لتتمركز حول نقاط الماء. وفى هذا العصر على مايظن تشكلَ الرصيد البشرى الذى أعمر مصر، فجاء بالأحرى أقل تجانساً، لاسيما بعد وقوع موجة أخرى من الهجرات الوافدة من الصحارى حوال عام ٢٤٠٠ ق.م، مع حلول طور جديد من الجفاف فى أعقاب الطور الرطب للدور دون المطير للعصر الحجرى الحديث. ومن ثمّ فإن سكان مصر لم يشكلو أبداً عرقاً نقياً. وإذا نظرنا إلى أصولهم فإنهم أساساً من عرق إفريقى. ويبدو بالفعل أن عنصرهم السائد ظل دائماً قريبا من غيرهم من سكان شمال وشرق إفريقيا، نذكر على سبيل المثال البچا فى شرق إفريقيا والبربر فى ليبيا. بل إن هذا الرصيد ذاته لم يبق نقياً، فقد اختلطت به بلا شك عناصر سامية منذ وقت باكر جداً، سواء جاءته من الشمال عبر سيناء أم من الجنوب عبر البحر الأحمر والصحراء الشرقية.

وقديماً كان البعض يفضلون أن يبالغوا فى تقدير الإسهام الساميّ ولكننا نجد أنه قد انصهر فى حقيقة الأمر فى الكتلة العامة. كما ينبغى إضافة بعض الإسهامات السوداء والنوبية وإن ظلت محدودة الأهمية على مايبدو. فالسكان منذ مطلع الدولة القديمة كانوا يتكونون من كتلة ذات تكوين واضح، تسربت إليه بعض العناصر السامية والنوبية. ولن يتغير السكان إطلاقاً على

امتداد آلاف السنين، ومن الشائع أن نشاهد هذا النمط القديم في ملامح الفلاح المعاصر. ومن ثمّ يمكن القول أن سكان مصر أفارقة في مجملهم وأفارقة بيض، وما تسرب إليهم من عناصر سامية من ناحية، وعناصر سوداء من ناحية أخرى، لم تكن أبداً من الكثرة بحيث تبدل من المظهر العام.

ومن الصعب، بل من المستحيل تحديد عدد سكان مصر القديمة. ولكن استناداً إلى الوثائق اليونانية الرومانية، هناك شبه إجماع على أن عددهم كان يناهز السبعة ملايين نسمة. ومع ذلك ينبغي اعتبار هذا الرقم حداً أقصى. فقد شهد تاريخ مصر فترات زيادة في السكان، عرفت بتأسيس مدن جديدة، كما شهد في المقابل فترات إفقار من السكان، نجد صداها في بعض النصوص. فنقرأ في أحدها: «أجل إننا نفتقر إلى النساء فلا حمل ولا حبل». وعلى أية حال وبالنظر إلى تعداد سكانها المنخفض نسبياً، فإن مصر تتفق في هذه النقطة كل الاتفاق مع حضارات العصر القديم الكلاسيكي. بيد أن هذا الفقر الديموجرافي سوف يشكل عقبة كأداء أمام مصر عندما ستواجه تكتلات الأحلاف الأسيوية.

٥ - اللغة والكتابة

إذا تركنا جانباً القسمات البدنية العرقية، فإن اللغة هي السمة

المميزة لشعب من الشعوب. فما أصول اللغة المصرية إذن؟ ظل المتخصصون يتجادلون لفترة طويلة بين قائل بأصولها السامية وآخر يرى أن أصولها إفريقية. بل وذهب البعض إلى افتراض أن أصولها أقيانية! أما اليوم فيسود شبه اتفاق على أن المصرية والكوشية (اللغات السودانية) والبربرية واللغات السامية، تشكل كل منها مجموعة مستقلة عن الأخرى، وإن كانت جميعها مشتقة من لغة قديمة مشتركة. وهو مايفسرّ، في ذات الوقت، مانلحظة من أوجه شبه عديدة بين المجموعات المختلفة وبالتحديد بين المصرية واللغات السامية وبين البربرية والمصرية. وهو مايجعلنا أيضاً في غنى عن الافتراضات التي كانت قد ظهرت - وعلى رأسها افتراض الغزو - والتي تكونت في الماضي لتفسير أوجه الشبه هذه، ومن ثمّ ينتمي المصري إلى غيره من شعوب إفريقيا البيضاء من حيث القسمات البدنية ومن حيث اللغة، على حدّ سواء.

تواترت إلينا اللغة المصرية كتابة منذ العصر الثيني، أو حوالى عام ٣١٠٠ ق.م، ولذا تعتبر من أولى كتابات البشر المعروفة، ومن المفيد أن نطل عليها إطلالة سريعة. لقد سبق أن ألقينا نظرة على تاريخ فك رموزها. وعلى رأس مايشدّنا إلى هذه الكتابة أنها نشأت نشأة محلية أصيلة، فلم تستعر كل ماتستخدمه من علامات هيروغليفية من عالمي الحيوان والنبات في وادي النيل فحسب، وهو برهان على أن ظهورها ونموها كانا ظاهرة محلية، بل تصوّر هذه

العلامات أيضاً بعض الأدوات والأواني التي كانت تستخدم في مصر منذ العصر الأدنى للحضارات النحاسية الحجرية، وهو دليل على أن الكتابة هي بالقطع نتاج الحضارة المصرية دون غيرها، وأنها قد نشأت على ضفاف النيل. وقد وصلتنا الكتابة في ثلاث صور مختلفة. يطلق على الأولى اصطلاحاً **الهيروغليفية**. وكانت وقفاً على الأنصاب والعمائر، فتدون كل علامة بمفردها مع الاهتمام الفائق بتفاصيل الرسم. فالطائر على سبيل المثال لا يشار إليه بخطوطه الجانبية وحسب، بل بشتى ملامحه الداخلية أيضاً مع توضيح الأجنحة والعينين والمخالب الخ.. وغني عن البيان أن تدوين هذه الكتابة كان يستغرق وقتاً طويلاً، حتى مع اختزال الرسم، لأن الكلمة الواحدة قد تتكون من خمس أو ست علامات مختلفة. ومن ثمّ فقد استخدم المصريون منذ أقدم العصور كتابة مختصرة، تعرف اصطلاحاً **بالهيراطيقية** (راجع الشكل رقم ١). وهي الكتابة التي اعتمدتها غالبية النصوص الأدبية والإدارية والقانونية المصرية التي بين أيدينا. وأخيراً، فقد تمّ اختصار الهيراطيقية بدورها في العصر المتأخر، فنشأت **الديموطيقية**. والتطور الذي طرأ على العلامات الديموطيقية بلغ حداً يستحيل معه التعرف على النماذج الهيروغليفية الأصلية. استخدم الخط الديموطيقي في تدوين العديد من الوثائق القانونية الهامة التي تعتبر غالبا مصدرنا الوحيد عند دراسة بعض المؤسسات، ومن



علامات هيروغليفية منمقة

(الأسرة ١٨)

علامات هيروغليفية بسيطة

(الأسرة ١٢)

الهيراطيقية (الأسرة ٢٠)

الديموطيقية (القرن الثالث ق . م)

شكل رقم ١

الملاحظ أن الكتابة المصرية القديمة، سواء بالخط الهيروغليفى أو الهيراطيقى أو الديموطيقى - لم تتطور أبداً وظلت متمسكة بأصولها الأولى، رغم ماتمتلكه من علامات بسيطة، ولم تتحول أبداً إلى الكتابة الألفبائية، شأنها شأن الفينقية واليونانية واللغات الحديثة. فنظام الكتابة المصرية تركيب معقد فى واقع الأمر. فمن ناحية، كان بوسعها على الدوام ان تصور الماديات بصورها. فإذا أردنا كتابة كلمات مثل مجداف وقوس ومحراث الخ.. يكفى أن نرسم مجدافاً وقوساً ومحراثاً. ويعرف هذا الضرب من الكتابة بالخط التصويرى، وشاع استخدامه فى الكتابة المصرية على مرّ العصور. بيد أن الخط التصويرى لا يصلح للتعبير عن كل شئ، فعلى سبيل المثال كيف يمكن تصوير الأفعال كالمشى والعَدْو والصعود أو الكلمات المجردة كالفكر والحب الخ.. وللخروج من هذه المشكلة، طبق المصريون قاعدة اللغز المصور، فقاموا بتفكيك الكلمات المجردة إلى عناصرها المكونة التى يمكن تمثيلها بأشياء لها صوت مماثل. ولتوضيح الأمر نختار مثالاً باللغة الفرنسية. كيف نكتب إذن كلمة DÉTOURNER - معناها: أدار (رأسه) - يبدل الاتجاه - حولّ (نظره) - بالإعتماد على سبيل الأسلوب المصرى، يمكن أن نقسمّ الكلمة إلى ثلاثة عناصر ونرسم على التوالى «نرد» "DÉ" ثم برج "TOUR" وأخيرا أنف "NEZ". (راجع شكل ٢ وشكل ٣). انه مبدأ الكتابة الهيروغليفية ذاته كما استخدم

فى العصر الثينى لكتابة أسماء الأعلام – ولكن هذا النظام كان فى حاجة إلى إضافات حتى يصبح صالحاً للاستخدام، وبادئ ذى بدء، قد تكون العلامة كقيمة صوتية مصدر غموض والتباس، فقد يفسر القارئ على سبيل المثال صورتى البرج والأنف تفسيراً خاطئاً ويقرأهما «قلعة» و«فتحة الأنف» مثلاً. وتجنباً لهذه الأخطاء أضاف المصريون علامة هجائية وضعوها أمام العلامة المقطعية أو خلفها لتحديد قراءتها. وقياساً على ذلك سنضع حرف "T" أمام "TOUR" وحرف "Z" بعد "NEZ" وأخيراً كانوا ينهون الكلمة بعلامة لا تقرأ وإن كانت تحدد القراءة المطلوبة بالإشارة إلى المعنى للكلمة، من خلال فكرة، كفكرة الحركة على سبيل المثال أو الشيخوخة أو القوت الخ.. وكانت هذه العلامات محددة بشكل ثابت ونهائى، وإذا عدنا للمثال الذى ضربناه لأضفنا إلى الرسومات السابقة رجلاً يدير رأسه توضيحاً لفكرة «أدار» التى تنطوى عليها الكلمة التى كتبناها صوتية. فالكتابة المصرية تشمل إذن علامات صوتية على غرار حروفنا الهجائية إلى جانب العلامات التصويرية التى لا يوجد ما يناظرها فى لغاتنا، وإن ظلت الكتابة الصينية محتفظة بها. وإضافة إلى ذلك تتكون بعض العلامات الصوتية بدورها من حرفين ساكنين أو ثلاثة حروف ساكنه للرسم الواحد. إنها العلامات المقطعية (راجع شكل ٤). ويعتبر نظام الكتابة الهيروغليفية مرناً جداً، إذ يمكن أن تبدأ

الكتابة من اليمين أو من اليسار، على حد سواء، بل وأيضاً من أعلى إلى أسفل. وهناك مايشبه الإملاء. وتيسرّ الذاكرة عملية القراءة. وأخيراً، نجد أن العلامات المقطعية وهي كثيرة جداً، (إذ تبلغ عدة مئات من العلامات الشائعة)، يلحق بها دائما علامة هجائية واحدة أو اثنتان أو ثلاث، تعزيزاً لها ومعيناً على القراءة. بيد أن المصرى لم يصل إلى حدّ اختراع الكتابة الهجائية كما نعرفها اليوم، ولم يكتف وحسب برفضه القاطع التخلي عن العلامات التصويرية والعلامات المقطعية وصولاً إلى اكتشاف الأبجدية، بل يبدو واضحاً أنه ابتعد عنها، أكثر فأكثر. لقد تباعدت الكتابة المصرية في العصر المتأخر عن الكتابة الهجائية، بعد أن ضاعفت من العلامات المستخدمة، وفي مقدمتها العلامات التصويرية، بالمقارنة مع كتابة الدولة القديم التي لم تسرف في استخدام العلامات. وأخيراً، لم تُقْدِم الهيراطيقية والديموطيقية على تبسيط الكتابة بحذف العلامات غير الضرورية لكنها استخدمت خطاً يوفر كتابة أسرع. أما بالنسبة لقواعد اللغة فتتميز المصرية بأن موضع كل كلمة من كلماتها، له ترتيبه الصارم الذي لا يحيد عنه، فتتعاقب الكلمات في المعتاد على النحو التالي: الفعل فالفاعل ثم المفعول المباشر وأخيراً المفاعيل غير المباشرة. إن حالات الإعراب كما عرفتها اليونانية واللاتينية لا وجود لها في المصرية، ولكنها تنفرد بمشكلة خاصة بها، ألا وهي، أنها تفتقر

إلى أدوات العطف والوصل، ويجد المرء صعوبة في تحديد الرباط، الذى يربط الجملة بما يسبقها أو يليها.

بعد أن تمَّ فك رموز الكتابة أصبح فهم الوثائق المصرية القديمة متاحاً وباتت تكوِّن فى الوقت الراهن أهم مصادر التاريخ المصرى وهى مصادر شديدة التنوع، وتضم: مسارد السير الذاتية المنقوشة بالهيروغليفية على اللوحات الحجرية وسطوح جدران مقابر الأفراد، والمسارد الرسمية للحملات الملكية وقد نحتت فى الغالب على جدران المعابد، والقوائم الملكية المدونة على ورق البردى أو المنقوشة على الحجر، والنصوص الادبية أو الإدارية المكتوبة بالخط الهيراطيقى على ورق البردى أو الألواح الخشبية الصغيرة أو لُخاف الفخار أو الحجر (الأوستراكا). كما أن هذه المصادر هى أحياناً مجرد أسماء حفرت على أشياء صغيرة أو جعارين أو تماثيل صغيرة. وبفضل هذا الحشد من الوثائق، أمكن إعادة كتابة تاريخ مصر كما سنعرضه الآن.

الباب الثاني

تاريخ مصر

قبل حوالى مائة سنة كان كل مانعرفة عن تاريخ مصر يتلخص فيما نقله إلينا بعض الكتاب الإغريق الذين سجلوا بعض أسماء الفراعنة وسردوا عنهم نوادر - كانت أغلبها فاضحة. كما كان بين أيدينا ماتبقى من مصنف مانتون، وهو عبارة عن قائمة لملوك مصر موزعة على ثلاثين أسرة. وماعدا ذلك كنا لا نعلم شيئاً. إن اكتشاف شمپوليون قد سمح فيما بين ١٨٢٢ والوقت الراهن بشغل الإطار الفارغ الذى وصل إلينا. وهكذا غدا تاريخ مصر حقيقة واقعة. وعلى أساس ماقلناه، فإنه لا ينبغى مع ذلك أن نعتقد أن مانعرفه عن تاريخ مصر يماثل مانعرفة عن تاريخ روما أو اليونان على سبيل المثال. فليس أمامنا من سبيل عند إعادة صياغة تاريخ مصر سوى الاعتماد على القوائم الملكية التى خلّفها المصريون، والآثار القائمة التى قاومت عوادى الزمن أو التى عُثر عليها أثناء أعمال التنقيب. وفى أحسن الأحوال، وصلتنا المسارد التى خلّفلها

ملوك مصر عن أعمالهم الخاصة. ولكن الرواية التاريخية، بما للفظ من معنى دقيق في الوقت الراهن، لا وجود لها على الإطلاق. ومن ثم فالتاريخ الذى يعاد صياغته هو تاريخ جاف ضئيل جداً. وأغلب ماتوصلنا إليه لا يتعدى أسماء وتواريخ، هى عناصر هشة، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذه التواريخ من ناحية هى أحيانا افتراضية إلى حد كبير، وأن ترتيب خلافة الملوك غير موثوق فيه من الناحية أخرى. وبالكاد نجحت بعض الشخصيات التى عُرفت بسعة نفوذها أن تطفو على سطح الرتابة المتجانسة التى مازالت تغلف الكثير من عهود فراعنة مصر. وبالطبع قد يقول البعض أن الكثير من هؤلاء الملوك المجهولين لم يشكلوا أبداً سوى أهمية نسبية. وعلى سبيل المثال، فماذا يضير تاريخ فرنسا أن شخصيتين مثل «شيليدريك» الثالث childericIII أو«فرانسوا» الثانى François II اختفيا تقريبا دون أن يتركا من أثر فى ذاكرة الإنسانية سوى اسم وتواريخ بداية حكمهما ونهايته. أما بالنسبة لمصر، فالأمر أشدّ خطورة. وهل يمكن أن نتصور تاريخاً لفرنسا لا ينبس بكلمة واحدة عن «حرب المائة عام» أو«الحروب الدينية» أو ثورة ١٧٨٩، تاريخاً يكتفى بما يقدمه من معلومات عن القديس لويس (التاسع) وفيليب أغسطس وفرانسوا الأول، ثم عهود هنرى الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر لينتهى بعصر الإمبراطورية، ويفتقر إلى وثيقة واحدة قد تلقى الضوء على

مايتخللها من فترات. وإذا أمكننا تصور مثل هذا التاريخ لتوصلنا إلى صورة تشبه إلى حد كبير تلك التى نعرفها عن تاريخ مصر فى الوقت الراهن. إن العصور المجهولة جهلاً مطبقاً أو شبه المجهولة تشكل قرابة ثلثى تاريخ مصر. ومن بين الأسرات الثلاثين التى ذكرها مانتون فإننا لا نعرف منها بالقدر الكافى سوى إحدى عشرة فقط. وبطبيعة الحال، تقف عصور الانتقال والاضطرابات التى لا نعرف عنها شيئا أو نكاد، على رأس قائمة ماكنا نود معرفته. وإذا غضضنا الطرف عن هذه الثغرات عندما نتناول تاريخ مصر بالدراسة، لرأينا من منظور يخالف واقع الأمر، ففى مصر كما هو الحال فى أى مكان آخر، كانت عصور النظام والإشعاع الحضارى أكثر ندرة، بينما عصور الإضطراب والفوضى التى تفتقر إلى الشموخ والعظمة هى الأطول. وربما أثرت هذه الأخيرة على الأولى، وجهلنا بها يسدّ الطريق أمام إمكانية فهم عصور الازدهار فهماً تاماً.

منذ مانتون، والملوك الذين حكموا مصر يناهز عددهم المائة وأربعة وتسعين ملكاً، يوزعون على ثلاثين أسرة. لكن ينبغى فى هذا الصدد أن نتناول لفظ أسرة بمعناه الضيق، فلا يعنى انتساب عدد من الملوك إلى أسرة واحدة، انهم ينحدرون من جد واحد، كما أننا لا نلاحظ فى كثير من الأحيان علاقة القرابة التى تربط أحد الفراعنة بخليفته. وأخيراً فإن مختلف الأسرات ليست كلها على

نفس القدر من الأهمية فبعضها وهمية كالأسرة السابعة، أو عاصرت بعضها البعض الآخر كالأسرات الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين والخامسة والعشرين، ولا تضم غيرها سوى عدد محدود من الملوك، فتتكون الأسرة الثامنة والعشرون من ملك واحد، والرابعة والعشرون من ملكين. في حين تناهز غيرها من الأسرات العشرة ملوك كالأسرة الرابعة عشرة التي تضم أربعة عشر ملكاً. وبالنظر إلى مايصادف المرء من صعوبة ليجد طريقة عبر هذا العدد الهائل من الملوك الذين لا نعرف عن معظمهم سوى الإسم، قسّم العلماء تاريخ مصر إلى أربعة عصور كبيرة : **الدولة القديمة** وتضم الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة، **والدولة الوسطى** وتضم الأسرتين الحادية عشرة والثامنة عشرة، **والدولة الحديثة** وتضم الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين، وأخيرا **العصر المتأخر** الذى يبدأ بالأسرة الحادية والعشرين ويمتد حتى الغزو اليوناني. أما كبرى عصور الاضطراب فهي: ١ – العصر الفاصل بين الدولة القديمة والدولة الوسطى، وهو عصر ثورات اجتماعية وحروب أهلية ويمتد من نهاية الأسرة السادسة وحتى منتصف الأسرة الحادية عشرة، ويطلق عليه عصر الانتقال الأول. ٢ – العصر الفاصل بين الدولة الوسطى والدولة الحديثة وهو عصر حروب أهلية وغزو أجنبي، ويطلق عليه عصر **الانتقال الثاني أو عصر الهكسوس** على اسم الغزاة. أما الأسرتان الأولى والثانية اللتان تكونان مايعرف

بالعصر الثينى، نسبة إلى عاصمة البلاد، فقد وضعتا على حدة وترتبطان عادة بالفترة التى تعرف اصطلاحاً **بعصر ماقبل الأسرات** الذى يسبق مباشرة الاتحاد التاريخى لمصر. وعلى كل حال فمن الصعوبة بمكان أحياناً أن نميز بين هاتين الأسرتين الأوليين وعصر ماقبل الأسرات وبين عصر ماقبل التاريخ بمعنى الكلمة. فكل مانعرفه عنها مستمد من أشياء بسيطة أو مدونات قصيرة وهى ألقاب أو أسماء أعلام لا تقدم سوى القليل عن تاريخ هذه الفترة. وأخيراً ظهر فى السنوات الأخيرة اتجاه إلى الفصل بين «الدولة الحديثة» و «العصر المتأخر» **بعصر انتقال ثالث**، يضم الأسرات الحادية والعشرين والثانية والعشرين والثالثة والعشرين والرابعة والعشرين. ونظرا لحدود هذا الكتاب المتواضعة اضطررنا إلى تناول تاريخ مصر فى عجالة سريعة وسنعرض له فى الإطار المختصر لثلاثة أقسام أكثر شمولاً. أما القسم الأول وعنوانه **العصور المظلمة** فيغطى الفترة الممتدة فى العصر الحجرى الحديث إلى نهاية الأسرة الثانية.. والقسم الثانى عنوانه **مصر الكلاسيكية** ويتناول بالدراسة الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة. وأخيراً يتناول القسم الثالث وعنوانه **عصر الانحطاط** الفترة الممتدة من الأسرة العشرين إلى ماقبل غزو الاسكندر لمصر.

الفصل الأول
العصور المظلمة
(ما قبل التاريخ - العصر الثينى)

١ - الترتيب الزمنى.

المشكلة الأولى التى تواجهنا بشأن هذا العصر الموغل فى القدم هى مشكلة الترتيب الزمنى، فمتى بدأ على وجه التحديد التاريخ والحضارة فى مصر؟ وللوصول إلى حل لهذه المشكلة لا نمتلك سوى عناصر قليلة. وبالفعل لم يسجل المصريون على آثارهم، كما هو حالنا الآن، نظام ترتيب زمنى موحد لتقويم متصل، فلا يقولون مثلاً «العام ١٦٢٠، فى عهد الملك فلان..» بل: «العام الرابع من حكم الملك فلان..» وكلما اعتلى ملك جديد العرش يبدءون من جديد فى العام الأول.. وترتيباً على ذلك فمجرد تحديد تاريخ اعتلاء أول ملك معروف عرش البلاد بالاعتماد على الحسابات المصرية، يتطلب منا معرفة مدة حكم جميع الملوك الذين حكموا مصر. غير أننا لا نعرف فحسب مدة كل حكم على حدة وعلى وجه اليقين، بل نجد علاوة على ذلك أن عدداً من الملوك فى فترات الاضطراب، قد تولوا الحكم معاً وفى آن واحد. ومن ثمّ فالاعتماد على مجرد عملية جمع مدد الحكم المعروفة، لن يؤدى سوى إلى بيانات مضللة. ولكن لحسن الحظ اعتمد المصريون

حساب السنة الشمسية عندما قاموا رسمياً بتقسيم الزمن إلى فصول وشهور وأيام، كما اعتمدوا أيضاً حساباً قمرياً للأعياد الدينية. تتكون السنة الشمسية من اثنى عشر شهراً والشهر من ثلاثين يوماً يضاف إليها أيام النسئ الخمسة، التى أطلق عليها الإغريق ابياجومينوس épagomènes – ومن ثم يصبح مجموع أيام السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً. تلك هى القاعدة التى تنهض على أساسها جميع حسابات الترتيب الزمنى المصرى الحديث. وفى الحقيقة كانت السنة المصرية أصلاً سنة زراعية على مايفترض، وكانت بداية السنة تتفق واليوم الأول من أيام الفيضان وهو وضع منطقى فى بلد يتوقف كل شئ فيه على النيل، ومن المحتمل أن تحركات النيل كانت فى بداية الأمر الأساس المعتمد الوحيد لحساب السنة المصرية، ولكن سرعان ما لاحظ المصريون – وربما منذ عصر ماقبل التاريخ – أن يوم بدء الفيضان يتفق أيضاً مع حدوث ظاهرة فلكية، إذ يتزامن فى هذا اليوم ظهور نجم الشعرى اليمانية فى الأفق مع الشمس، وهذا النجم يُعرف عند الإغريق باسم «سوتيس» و«سيريوس» عند علماء الفلك المعاصرين. عندئذ اعتبرت هذه الظاهرة مثل ظاهرة الفيضان نقطة بدء السنة. ومن الآن فصاعداً حددت ظاهرتان بدء السنة المصرية، إحداهما طبيعية وترتبط بالفيضان وهى غير دقيقة إلى حدٍّ ما، والأخرى فلكية وترتبط بتزامن ظهور نجم فى

الأفق مع الشمس في آن واحد. غير أنه، كما اتضح لنا، كانت السنة المصرية تتكون من ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً، في حين نعلم أن السنة الشمسية الحقيقية تتكون من ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع اليوم. فالسنة المصرية تتأخر أربع وعشرين ساعة عن السنة الشمسية الحقيقية كل أربع سنوات. ومن ثم لن تتزامن الظواهر الثلاث، وهي شروق الشمس وشروق الشعرى اليمانية وبداية الفيضان، في آن واحد على رأس السنة المصرية إلا بعد إنقضاء ستين وأربعمائة وألف سنة، وهو مايعرف بدورة الشعرى اليمانية. ومن ثم كان علماء الفلك المعاصرون لا يحتاجون إلا إلى أن يحددوا عدد مرات تزامن الشروق الاحتراقي للشعرى اليمانية فعلاً مع بداية شهر يوليو - أي بداية الفيضان - عند خط عرض منف، حتى يهتدوا إلى التاريخ الذي يفترض أن المصريين قد بدءوا عنده حساباتهم. وحدث هذا التطابق ثلاث مرات على امتداد الخمسة آلاف سنة السابقة على ميلاد المسيح: (١) في السنوات ١٣٢٥ - ١٣٢٢ ق.م، أيام الأسرة التاسعة عشرة (وكان الكتبة المصريون قد سجلوا هذا التطابق). (٢) في السنوات ٢٧٨٥ - ٢٧٨٢ ق.م، قرب نهاية العصر الثيني. (٣) في السنوات ٤٢٤٥ - ٤٢٤٢ ق.م في غياهب ماقبل التاريخ. وظن البعض أنهم لاحظوا وجود إشارات إلى السنة الشمسية في «متون الأهرام». وللأسف يصعب تحديد تواريخ هذه المتون بكل ثقة. وربما كانت

موغلة فى القدم ومن ثم «تصبح الإشارة إلى السنة الشمسية دليلاً على أن هذه السنة كانت مستخدمة قبل عام ٢٧٨٥، مع ترحيل عملية اكتشاف التقويم إلى دورة الشعرى اليمانية السابقة أى عام ٤٢٤٥، على وجه التقريب، ولكن بالنظر إلى أننا لم نعرف هذه المتون إلاً من خلال نسخ تعود إلى عام ٢٤٠٠، فمن المحتمل أيضاً أن العمل بالسنة الشمسية التى تشير إليها المتون قد بدأ قبل ثلاثة قرون من الزمن أى حوالى عام ٢٧٨٥. وقد ساد اعتقاد شبه عام على أن التقويم الشمسى قد رأى النور فيما بين ٤٢٥٤ و ٤٢٤٢ قبل الميلاد. أما فكرة أن المصريين ربما لم يأخذوا به على مايظن، قبل عام ٢٧٨٥، فلم تظهر إلا منذ عهد قريب جداً. وكانت خصوصيات التقويم المصرى ذات فائدة عظيمة للباحث. وبالفعل وبمرور الزمن أخذت الفوارق بين السنة الفلكية المضبوطة ضبطاً دقيقاً والسنة التى اعتمدها المصريون يزداد خطورة، فبعد أن كان أسبوعاً، صار شهراً ثم شهرين حتى انقلبت فصول السنة وتزحزحت ليقع صيف التقويم الرسمى فى قلب الشتاء الحقيقى. وغنى عن القول أنه كان من الصعب الا تسترعى هذه الظاهرة الفريدة انتباه الكتبة المصريين، فقد وصلتنا نصوص تسجل ملاحظتهم عن الفارق بين الشروق الاحتراقى للشعرى اليمانية وبداية السنة الرسمية (لاسيما وأنها كانت تعين المصريين على تحديد الأعياد الملكية). وساعدت ملاحظات الكتبة علماء الفلك

المعاصريين فى تحديد تواريخ للمراجعة والتحقق، وهكذا أمكن تحديد تاريخ سنوات حكم بعض الملوك بكل يقين: ومنهم أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة (سنوسرت الثالث) وملكان من ملوك الأسرة الثامنة عشرة (امنحوتب الأول وتحوتمس الثالث).

وقصارى القول، وبفضل الترتيب الزمنى الفلكى، فإننا نعرف عن يقين تواريخ سني حكم ثلاثة من ملوك مصر والتواريخ المحتملة لبدء التقويم فى مصر. وإذا وقفنا بين التواريخ التى حصلنا عليها عن طريق علم الفلك وبين التواريخ التي توفرها لنا قوائم الملوك (قوائم مانتون وقوائم الوثائق المصرية) وسلسلة الأنساب والتزامن مع تاريخ الشعوب المجاورة لمصر، اهتدينا إلى تحديد مستهل القرن الثلاثين قبل الميلاد كبداية لتاريخ مصر. وقد امدّنا المنهج الحديث المعروف باسم «الكربون - ١٢١٤ أو الكربون المشعّ» وسيلة للتحقق من الترتيب الزمنى التقليدى، وهو منهج يصعب تجاهله لمعرفة أقدم تواريخ مصر عهداً. ويستند هذا المنهج إلى المبدأ القائل بأن كل كائن حى يحتوى على كمية محددة من الكربون المشع، وأن هذا النشاط الإشعاعى يتناقض، إعتباراً من وفاة الفرد، وفقاً لمنحنى ثابت أمكن حسابه. وبالنظر إلى أن النشاط الإشعاعى الطبيعى للكائن الحى معروف، فإذا أردنا تحديد عمر عينة محددة، فما علينا سوى ان نحسب مقدار نشاطها الإشعاعى. ومن العينات المستخدمة البقايا العضوية: من

أخشاب ونباتات وشعر ولحم وعظام متكلسة وأصواف الخ.. التى تم العثور عليها أثناء الحفائر. وبفضل رفع كفاءة الأساليب التقنية المستخدمة، جرى حديثا (١٩٧٦) إعادة تقييم تغيرات تواريخ «الكربون – ١٤» (ك ١٤) ومراجعتها. واتضح أن تواريخ ماقبل التاريخ وماقبل الأسرات تعود إلى أزمنة أبعد مما كان يظن من قبل، وهى بالنسبة لمصر على النحو التالى حسب الترتيب الزمنى المطلق:

الفيوم «ب» (الحجرى الحديث) حوالى ٥٧٠٠ – ٤٣٠٠ ق.م

العمرى (الحجرى الحديث) حوالى ٤٠٠٠ – ٣٥٠٠ ق.م

نقادة ٢ (ماقبل الأسرات) حوالى ٣٥٠٠ – ٣٣٠٠ ق.م

حماكا (الاسرة الأولى) حوالى ٣٠٠٠ ق.م

سنفرو (الأسرة الرابعة) حوالى ٢٨٠٠ ق.م

سنوسرت الثالث (الأسرة الثانية عشرة) حوالى ١٨٠٠ – ١٧٠٠ ق.م

إن التواريخ التى نتوصل اليها، على هذا النحو لتؤكد فى مجملها صحة الترتيب الزمنى الذى سبق الأخذ به، اعتماداً على مايعرف اصطلاحاً بتواريخ الشعرى اليمانية. إن تحديد عام ٣١٠٠ق.م كتاريخ لبداية الحقبة التاريخية فى مصر، وإن أيدّته أساليب البحث الحديثة، لا ينبغى أن يخدعنا، فهو تاريخ تقديرى واصطلاحى، يحدد البداية فحسب، وهى ليست بداية الكتابة على كل حال، بل هى على وجه التحديد ظهور أقدم الآثار المكتوبة

المعروفة. إن حضارة مصر هى فى واقع الأمر أقدم عهداً من هذا التاريخ، فعدم اكتشاف وثائق مكتوبة سابقة على ٣١٠٠ ق.م، لا ينهض دليلاً على أن مصر لم تكن بلداً متحضراً قبل هذا التاريخ. فمفهوم الحضارة يختلف عن مفهوم الكتابة، بل قد يصل بنا الأمر، إلى القول بأن أهم الأزمنة بالنسبة لتاريخ الحضارة فى وادى النيل هى تلك الفترة الممتدة من الألف الخامس وحتى عام ٢٧٨٠، الذى يسجل بداية الدولة القديمة. وبالفعل تشكلت فى الحقبة الممتدة بين هذين التاريخين: اللغة والكتابة والديانة والمؤسسات ثم وحدة البلاد السياسية فى نهاية المطاف. ومن هنا نصل إلى أهمية هذه الحقبة ومدى الفائدة المرجوة إذا عرفناها معرفة جيدة. وللأسف، وبسبب قدمها بالذات، فإنها أكثر عصور التاريخ المصرى غموضاً. ومع ذلك، فقد أمكن لبعض الوقائع أن تلقى بصيصا من الضوء على عصور التكوين هذه. وندين بهذه الوقائع إلى فئتين من المصادر، إحداها أركيولوجية (أثرية) والأخرى إبيجرافية (خاصة بالنقوش)

بادئ ذى بدء، فلنتناول المصادر الأولى بالفحص والتمحيص، إذ أنها تتيح دراسة الجانب المادى لحضارة وادى النيل حتى فجر عصر الأسرات. ولأن أرض مصر، فى الأماكن الواقعة بعيداً عن الفيضان، هى أرض جافة جداً، فإنها تبقى على ما دُفن فى باطنها، فى حالة جيدة من الحفظ. ومع أعمال التنقيب المنهجية

التى أجريت فى كل الأماكن تقريباً، وفى مقدمتها الصعيد، تم التعرف على أدوات البشر من أسلاف أبناء مصر فى العصور اللاحقة — عصور التاريخ المكتوب.

٢ – العصر الحجرى القديم

ساد الاعتقاد لفترة طويلة أن مصر لم تعرف «العصور الحجرية» التى تم الكشف عنها فى أوروبا. وثبت خطأ هذا الإعتقاد. إذ لم تعرف مصر العصر الحجرى الحديث فحسب، بل عرفت أيضاً العصر الحجرى القديم الذى سنعرض له فى عجالة سريعة، إذ يستحيل فى الوضع الراهن لمعارفنا أن نتحقق من وجود رابطة مابين سكان وادى النيل فى العصر الحجرى القديم والعصر اللاحق. وعلى كل حال كانت ظروف الحياة شديدة الاختلاف، ولم يكن المناخ واحداً، فكان أشد رطوبة، وأقرب مايكون إلى مناخ الأقاليم الاستوائية فى الوقت الراهن. كان النيل يغطى آنذاك أرض الوادى بأكملها، فى حين لا يحتل الآن سوى نصف مساحته. ومن ثم أقام الإنسان أماكن سكناه فوق الأرض التى أصبحت صحراء فيما بعد. لقد أخذ المناخ يتدهور تدريجياً خلال نهايات العصر الحجرى القديم حتى استقر مع حلول العصر الحجرى الحديث عند نظام مناخى أقرب مايكون إلى مناخ العصر الحديث.

لقد عرفت مصر جميع أطوار العصر الحجرى القديم الأوروبى، فتوجد سحْنة* ماقبل شيليه وأخرى شيلية وثالثة أشولية، وسحْنة اللوازية – موستيرية وسحنة مدستيرية وأخرى عاطرية ثم سحنة سبيلية، وأخيراً فإن الأورنياسية والسولتيرية والمجدلينية، تقابلها الحضارة القفصية والحضارة المعروفة اصطلاحاً بحضارة حلوان.

وهكذا يمكن القول أن وادى النيل كان آهلاً بالسكان فى مختلف العصور، وافترضت بعض الدراسات الحديثة أنها قدمت القرائن على أن «المصريين الأوائل» قد تفوقوا على بقية عالم البحر المتوسط فزرعوا الشعير والحنطة فى مصر العليا عند نهاية العصر الحجرى القديم (١٣٠٠٠ قبل الميلاد)، أما الآن فقد عدَل الجميع عن هذه الفرضية، ولكن يبدو من المؤكد أن المصريين كانوا يستهلكون الشعير فى غربى الوادى خلال الألف السابع قبل الميلاد، إن لم يكونوا قد زرعوه بالفعل.

٣ – العصر الحجرى الحديث

برهنت أعمال التنقيب فى السنوات الأخيرة عن وجود عصر حجرى حديث فى مصر، فعرف الإنسان فن الحجر المصقول

---

* سَحْنَة Facies : مجموعة الخواص الصخرية والمعدنية أو الصخرية التى يتميز بها صخران أحدهما عن آخر، تكونا فى زمن جيولوجى واحد أو أزمنة مختلفة تبعاً لظروف التكوين وبيئة الترسيب.

(معجم الجيولوجيا، مجمع اللغة العربية ص ١٥٩.)

والخزف، إلى جانب زراعة الحبوب وتدجين الحيوانات قبل استخدام النحاس بزمن طويل.

وبحلول العصر الحجرى الحديث أخذت أحوال الوادى تتغير من جميع الوجوه. فأخذ المناخ يقترب أكثر فأكثر من المناخ الحالى، وتقلص النيل وانحسر من مجمل أرض الوادى، وأخيراً استوطن البشر أرض مصر نهائياً وسكنوها. وساد الجفاف المناطق المتاخمة وتصحرت، مما دفع إلى تمركز السكان فوق شريط ضيق من الأرض التى خصبتها مياه النيل. ويمكن النظر إلى أقوام العصر الحجرى الحديث على أنهم بحق الأجداد المباشرون للمصريين الذين عاشوا فى عصر الأسرات. ولم ينحدر هؤلاء بالتأكيد من جنس واحد، بل كانوا منذ ذلك الوقت محصلة مزيج أنماط بشرية من البحر المتوسط (الكوشيين الحاميين) وأخرى زنجية، وهذا الخليط ناتج فى حد ذاته من أجناس العصر الحجرى القديم الأعلى. وبالنظر إلى حقيقة أن سكان العصر الحجرى الحديث كانوا قد استقروا منذ هذه الأزمنة فى أرض الوادى وصاروا مصريين حقاً، فإنهم يصبحون خارج نطاق بحثنا واستقصائنا. وفى واقع الأمر، فإن الأرض التى كانوا يقيمون عليها آنذاك تغمرها فى الوقت الراهن طبقة من غرين النيل تراكمت على امتداد آلاف السنين. إن ارتفاع منسوب المياه نتيجة هذه التراكمات جعل من المستحيل تقريبا القيام بأعمال الحفر

والتنقيب عند مستوى العصر الحجرى الحديث. وقد غاص هذا المستوى ليستقر عند قاعدة الرُبى التى تنهض فوقها المدن المصرية التى يرجع تأسيسها أحيانا إلى هذا العصر. ولكن لحسن الحظ أبقى الزمن على بعض الاستثناءات، إذ امدتنا بعض المواقع بما نعرفه عن حضارات العصر الحجرى الحديث فى مصر. وتتمركز هذه المواقع عند حواف الصحراء، ومن دلائل وجودها الجبانات ومخلفات الطهى على حدٍّ سواء. وتشكل هذه المخلفات أكواماً ضخمة، تعود علينا دراستها بعظيم الفائدة. ويمكن أن نعثر فيها على عظام حيوانات تساعدنا على تصور أنواع الحيوانات التى عاشت فى هذا العصر، وأيضا عظام الماشية وروثها، وهى دليل توصل الإنسان إلى تربية الماشية، كما عثر أخيرا على وجه الخصوص على حبوب الشعير والحنطة، وهو مايدلّ على نجاح الإنسان منذ ذلك الوقت المبكر فى السيطرة على أرض وادى النيل وفلاحتها، إذ أن هبوط المزارعين إلى أرض الوادى كان فى رأينا إيذانا ببداية حضارة مصر القديمة. وسوف نوضح فيما بعد أن الدور التاريخى الذى اضطلع به الملوك هو توحيد الأقاليم فى بداية الأمر، فى ظل سلطة اتحادين متعاديين، يضم الأول الشمال ومصر الوسطى ويضم الثانى جنوبى الوادى. ثم تولوا فى وقت لاحق دمج مملكتى الجنوب والشمال فى مملكة واحدة. والإقليم هو نواة الأساس فى

الاتحادات الأولى، وقد نشأ من التفاف البقاع الزراعية حول عاصمة إقليمية صغيرة، وكان للفلاح الفضل الأول فى تأسيس النواة التى شكلت مصر. ومن المفيد أ نلاحظ ان هذه النواة هى الركيزة التى نهض فوقها البنيان كله، وكانت قد بدأت تتشكل منذ العصر الحجرى الحديث أى فى حوالى الألف الخامس قبل الميلاد. وإذ نذكر هذا التاريخ، إنما نسعى إلى عرض أفكارنا مع شئ من الوضوح. فالتواريخ الوحيدة المؤكدة هى تلك التى يوفرها «الكربون ١٤ المعايرى» لحضارات الفيوم: ٥٥٠٠ ± ٢٥٠ و ٥٠٠٠ ± ١٨٠ ق.م والعمرى: ٤٠٠٠ ± ٢٣٠ ق.م. كانت أدوات هؤلاء المصريين الأوائل مصنوعة من الحجر فقط. ومنذ هذا الوقت المبكر تتميز هذه الأدوات الظراني. بجمال القطع والصقل، وهى السمة التى ميزّت على الدوام صناعة الحجر فى مصر. ولا يمكن تفسير امتلاك الحرفيين المصريين ناصية فنهم منذ مطلع التاريخ المدوّن إلا نتيجة التقاليد المتواترة المنحدرة عن قاطعى حجر الظران الأوائل، فكانوا مكملين لهم، وربما كان من الأصوب القول أنهم من نسلهم، إلى درجة أنهم استمروا يبدعون نفس الأشكال. أقام سكان الوادى فى أكواخ على شكل تجمعات ومارسوا تربية الحيوانات المنزلية، نذكر منها الثيران والخراف والماعز. كما تم استئناس الكلب الذى كان يعاون على مايظن فى حراسة القطعان وفى القنص الذى كان يوفر إلى جانب الصيد النهرى إضافة

لايستهان بها لغذاء الجماعات البشرية. كما تمرسوا على فلاحة الأرض فعرفوا زراعة القمح والشعير، وتم العثور على أدواتهم الزراعية كالمعاول الحجرية والمناجل الظرانية وحفظوا الحبوب فى مطامير من صلصال. وعرف أبناء العصر الحجرى الحديث كيف يحولون الحبوب إلى دقيق، فقد عثر على الأرحاء المسطحة التى استخدموها فى طحنه. ومما هو جدير بالملاحظة أن طراز هذه المناجل والأرحاء مماثل للطراز الذى استخدم فيما بعد فى العصور التاريخية. وأخيرا فقد عرف الناس منذ هذا الوقت المبكر دباغة الجلود ونسج الحصير والنسيج والحياكة وصناعة السلال. وألمّ الإنسان بصناعة الفخار، وإن كانت فى الواقع على قدر كبير من الخشونة. كما نجح الإنسان فى فلق العظام وتدبيبها وصنع منها الخطاطيف والأساور والإبر. وأخيرا فقد قدّم للموتى منذ ذلك الوقت، مايشبه الشعائر. فدفنوا على مقربة من القرى فى حفر بيضاوية. ووسدوا على جنبهم، مع ثنى الركبتين أسفل الذقن، فى وضع يعرف بوضع الجنين. وباختصار، فقد مهدت حضارة العصر الحجرى الحديث الطريق أمام الحضارة المصرية بمعنى الكلمة، بأن زودتها بشتى عناصرها المادية. فبفضلها برز الإطار الطبيعى الإنسانى لوادى النيل بإقامة المواقع الدائمة الأولى لاستصلاح الأرض واستزراعها.

فى مصر مجموعتان حضاريتان من العصر الحجرى الحديث. تقع الأولى فى الشمال عند الطرف الجنوبى للدلتا، قرب الفيوم

وفى مصر الوسطى، (وأهم هذه المناطق هى مرمدة بنى سلامة والفيوم (مدرج ١٠م) والفيوم ب (المدرجان ٤م و- ٢م) والعمرى). وتقع المجموعة الأخرى فى الجنوب فى مصر العليا، وأهم مناطقها فى ديرتاسا. ومن الملاحظ أن مصر قد عرفت منذ ذلك الزمن السحيق مركزين حضاريين متميزين أحدهما فى الجنوب والآخر فى الشمال، الأمر الذى يفسر الأسباب التى دفعت المصريين إلى التمسك ولفترة طويلة بتقسيم البلاد إلى جزئين وإن كانا لا يشكلان منطقتين متميزتين جغرافياً. فمناطق الدلتا الساحلية التى تتميز بمناخ البحر المتوسط لم تكن فى هذه الأزمنة القديمة آهلة بالسكان على مايعتقد، ومن ثم بات التمييز بين الشمال والجنوب على قدر كبير من الهشاشة. ومن ثم يرجع هذا التمييز على مايفترض إلى أصول إثنية (عرقية) أو تاريخية بكل بساطة.

٤ - العصر الإنيوليتى أو الكلكوليتى

فى أوروبا، يستطيع المرء أن يميز بوضوح تام بين العصر الحجرى الحديث، حيث يعتمد الإنسان على أدوات من حجر فقط، فيقطعة ويصقله، وبين العصر الإنيوليتى (أو الحجرى النحاسى) الذى يتميز بظهور المعادن الذهب أولاً ثم النحاس فالبرونز. أما فى الشرق، وفى مصر على وجه الخصوص، فلا يبدو هذا التمييز على هذا النحو من الوضوح فى معظم الأحوال، إذ تفتقر العديد

من المناطق الإنيوليتية إلى وجود المعادن. وهكذا لا ينبغى تصور حدوث ثورة مباغتة تفصل بين العصرين، وغزاة يعيثون فى أرض الوادى فساداً، يأتون على الأخضر واليابس، مستغلين تفوق اسلحتهم نظراً لأنها صنعت من المعادن، لينزلوا بأهل البلاد الأصليين الهزيمة ويتسيدوا عليهم. وفى الحقيقة فإن الانتقال من عصر إلى عصر كان غير محسوس. ولو كانت المعادن قد جلبت إلى مصر من الخارج، وهو احتمال غير مؤكد على كل حال، فإنه لايوجد مايدفعنا إلى الافتراض أنها قد جاءت فى ركاب غزوة خارجية. ومع ذلك لم يغير ظهور النحاس شيئا من أساليب قطع الظران، فهو الأداة الأصلية، فى الماضى كما فى المستقبل. لقد حدث ماحدث وكأن اكتشاف المعادن قد انتشر سلمياً: فاكملت الحضارة الإنيوليتية ما بدأته حضارة العصر الحجرى الحديث. ولكن فى حين أمكن مقارنة العصر الحجرى الحديث فى مصر بمثيله على صعيد العالم، فإن مصر عندما انتقلت إلى العصر الإنيوليتى اكتسبت أصالتها الخاصة وأخذ التباين بينها وبين الحضارات المحيطة بها يتزايد. وعندما بلغ العصر الإنيوليتى أقصى درجات تطوره تداخل واختلط مع الحضارة «التاريخية» بمعنى الكلمة، وهى الحضارة التى أفضى إليها وانتهى عندها.

يقسم علماء المصريات العصر الإنيوليتى إلى عدد من التقسيمات تختلف باختلاف العلماء. فتضم هذه التقسيمات:

البدارى والعمرى والجرزة والمعادى تارة، أو ماقبل الأسرات القديم فالأوسط فالحديث، تارة أخرى، أو حضارة الإنيولوتى الأولى فالثانية تارة ثالثة، يعقبها أحياناً الزمن السابق على العصور التاريخية Protohistoire. لقد تأكد تتابع البدارى فالعمرى فجرزة بفضل حفائر الهمامية قرب البدارى. فالعصر الإنيوليتى هوفى حقيقة الأمر مكمل للعصر الحجرى الحديث وله على غراره مركزان حضاريان، أحدهما فى الشمال والآخر فى الجنوب، ولكن مايميز العصر الإنيولوتى هو اندماج عنصرى الشمال والجنوب بعد مُضى فترة من الزمن. وعلى المدى الطويل انبعثت الحضارة الفرعونية من هذا الاندماج. ومن ثمّ سوف ندرس العصر الإنيوليتى قبل الاندماج وبعده.

يقتصر مانعرفه عن العصر الإنيولوتى فى الفترة السابقة على الاندماج على مواقع الصعيد. وقد تم الكشف عن أقدمها فى البدارى.

اكواخ الموقع بيضاوية الشكل ومشيدة بمواد خفيفة. ويتكون الأثاث من الحصر ووسائد من جلد وأسرّة من خشب. أما جبانة البدارى فتبعد قليلاً عن القرية شأنها شأن جبانات العصر الحجرى الحديث. والدفنات على شكل حفر بيضاوية مثل الأكواخ، يوسّد فيها الموتى فى وضع الجنين وتحيط بهم أوان، ربما كانت تحتوى القرابين. الجديد فى هذه الدفنات هو ظهور تماثيل صغيرة

لنساء عاريات مصنوعة من العاج أو الصلصال، والأهم هو تغشية جدران الحفرة بتعريشة من البوص المجدول لعزل الجثة عن ركام التربة المحيطة. وتظل هيمنة استخدام الظران هي السمة البارزة لصناعة البدارى مع اقتصار استخدام النحاس على القطع الصغيرة، ثم تشكيلها بأسلوب الطرق. واعتمدوا في نسيجهم على الكتان وإن ظلوا يستخدمون الجلود. وأجادوا أشغال الخشب وتقدمت صناعة الخزف تقدماً ملحوظاً بالمقارنة بمثيلتها في العصر الحجرى الحديث. إن أشكالها أقل في عددها من أشكال العصر الحجرى الحديث في الشمال ولكن تفوقها جمالاً. إنه العصر الذهبى للخزف في مصر. وظهرت تقنية جديدة مع مطلع العصر الإنيوليتي: الطلاء المزجج الأزرق المائل للاخضرار. وبقيت استعمالاته محدودة، ولكن ظل مستخدماً طوال العصر الإنيوليتى، وأصبح السمة المميزة للفن المصرى. وجدير بالملاحظة أن البدارى ليس بها أوان من الحجر الصلب في حين أنها ظهرت في حضارة العصر الإنيوليتى بالوجه البحرى. وفي المقابل وجدت صلايات الشست. وسوف نلحظ تطورها حتى العصر التاريخى. وأخيرا تم الكشف في البدارى عن دفنات لحيوانات تضم ابن آوى وثيران وكباش وغزلان وكانت مدثرة في حُصُر أو قماش. وهنا يثور تساؤل حول وجود شعائر خاصة بالحيوانات المقدسة منذ هذا الزمن المبكر، وربما كانت هذه الشعائر أساس الديانة المصرية في العصر التاريخى.

عاشت الحضارة الإنيوليتية كما درسناها فى البدارى، مع فروق بسيطة، خلال المرحلة التى تعرف اصطلاحاً بعصر ماقبل الأسرات القديم، ولكن قرب نهاية الألف الخامس قبل الميلاد حلت سلسلة من التغييرات على مركز حضارة الجنوب الذى فرغنا لتونا من دراسته. أصبحت الأكواخ مستطيلة وشهدت المقابر تطوراً مماثلاً وهو مايبرهن على انها قد صممت **كمساكن**. وسوف يبقى هذا المفهوم من السمات البارزة للحضارة المصرية. ونمت أشغال النحاس بعد أن كان استخدامه قليلاً ، وظهرت الأوانى الحجرية. وبعد أن كان الخزف غير مزخرف بدأت الزخارف فى الظهور، فتارة تقلّد الأوانى الحجرية، وتارة أخرى تغشى سطوحها بزخارف طبيعية. وظهرت مجمل هذه التغييرات كنتيجة لدمج مراكز الحضارة فى الجنوب وفى الشمال. وبالفعل فإن جميع العناصر الجديدة التى ظهرت على هذا النحو فى صعيد الوادى قد وجدت من قبل وبشكل من الأشكال فى مراكز حضارة العصر الحجرى الحديث فى الشمال ولاسيما فى مرمدة بنى سلامة والفيوم. ومن المحتمل أن نضع يدنا على جميع عناصر التجديد فى حالة جنينية لو توصلنا إلى معرفة موقع معاصر للبدارى. فالمقاطع الكمثرية الشكل الموجودة فى مرمدة بنى سلامة فى العصر الحديث، تظهر فى الجنوب فى الألف الخامس، لتحل محل مقمعة على شكل قرص. وبالمثل فإن الأوانى الحجرية التى لم تعرفها

البدارى قد عرفتها حضارات العصر الحجرى الحديث فى الشمال. ومن ثمّ كان للعلماء أسبابهم عندما اتفقوا على أن التغييرات التى لاحظنا وجودها فى مركز الجنوب الحضارى إنما ترجع أصولها فى حقيقة الأمر إلى الشمال. ولكن نودّ أن نؤكد على نقطة واحدة: إذا كانت حضارتا الشمال والجنوب مختلفتين قبل اندماجهما، فلا يعنى ذلك أنهما كانتا غريبتين الواحدة عن الأخرى، ينحصر الجانب الأكبر من مركز الشمال فى حواف الدلتا الجنوبية وفى الفيوم، وهو إفريقى – شأنه شأن مركز الجنوب. لقد تفوق بميزة جغرافية وحيدة، هى إمكانية الإتجار مع الغرب عبر «برزخ» واحة سيوة، ومع الشرق عبر سيناء، وربما جاء النحاس من ناحية الشرق.

وأخذ البعض بفكرة الغزو لتفسير إندماج الجنوب والشمال، اعتقاداً منهم أنهم كشفوا عن عناصر بشرية أجنبية فى مقابر الوجه القبلى اللاحقة على الاندماج. ولا يوجد مايؤكد أن هذه العناصر البشرية «ذات الرأس القصيرة» ليست أيضاً من عناصر البحر المتوسط. وإضافة إلى ذلك، فإذا اعتبرنا هذه العناصر عناصر أجنبية، فإن أعدادها ليست بالضخامة التى تدفع المرء إلى اعتبار أن ماحدث هو غزو أو احتلال. وحتى لو كشف علم الآثار عن تأثير للشمال على الجنوب كما يجزم البعض – وإن ظلّ الأمر فى حاجة إلى دليل – فلا يوجد على كل حال مايدفعنا إلى

أن نؤكد أن ماحدث كان نتيجة تدخل أجنبي، ولا يعني ذلك بالطبع عدم وجود اتصالات شرقاً وغرباً مع عناصر آسيوية أو ليبية.

وفي عصر ماقبل الأسرات الحديث اكتمل الاندماج بين المراكز الحضارية في الشمال والجنوب، وسجلت هذه الحضارة تقدماً ملحوظاً على الحضارة التي كانت قائمة في الوجه القبلي عند بداية العصر الإنيوليتي.

ظهر الطوب اللبن في أعمال التشييد، وكانت مطامير الحبوب من الصلصال المحروق فكانت بالتالي عازلة إلى حدّ كبير. وفي الجبانات، لم تتخذ الحفر أشكالاً مستطيلة، على غرار المساكن وحسب، بل إنها تشهد إرهاصات عمارة حقيقية. فحجرة الدفنة مكونة من بناء من طين، ويعلوها سقف وأعدت حجرات جانبية كمخازن للمؤن الجنائزية. وفي البداية كان يوضع المتوفى في صندوق من خيزران ثم في الصلصال المحروق ليدفن في نهاية المطاف في تابوت حقيقي من خشب. بل يبدو أن الجبانات قد أقيمت في البر الغربي من النيل على وجه الخصوص. كما تتجه رأس المتوفى إلى الشمال ليدير وجهه صوب الشرق. وباختصار فإننا نشهد هنا ظهور الصياغة الأولى للديانة الجنائزية المصرية ولو على الصعيد المادي. وتحسنت الصناعة وبلغ صقل الظران الذروة. كما نشهد أخيرا وبالتحديد تصوير الإنسان كما يظهر في زخارف الأواني الفخارية ذات الخلفية المائلة إلى الصفار، وفي

التماثيل الصغيرة أو المصنوعة من العاج أو الصلصال، وعلى السطوح المنقوشة لمقابض السكاكين، بل وفي تصوير جداري حقيقي، كما حلّ الدور على فن التماثيل ليظهر إلى الوجود (تمثال رجل وآخر لأسد). إنه العصر الذهبي للأواني المصنوعة من الحجر الصلب، فكانت تقتطع وتصقل ببراعة ومهارة فائقتين. ويلقي تطور الفن بصيص نور على الحياة الاجتماعية لأبناء العصر الإنيوليتي. وكثيرا ماتظهر على القطع الأثرية المصورة، وبصفة خاصة على الصلايات المصنوعة من الشست، أشكال مبان أو أشخاص يرفعون مايشبه السوارى التي يعلوها حيوان أو شئ، وسوف نلتقي في العصور التاريخية بهذه الألوية على هيئة شارات الأقاليم، وتأسيساً على ظهورها، يحق لنا على مايبدو أن نستنتج أن مصر، قبل حلول نهاية العصر الإنيولوتي، كانت قد عرفت تنظيماً اجتماعياً. وأخيراً فإن انتشار تصوير الصقر ورأس البقرة على سطوح الصلايات ينهض دليلاً على صياغة الديانا المصرية منذ ذلك الزمن وارتباط عبادة حتحور برأس البقرة وحورس بالصقر. ومن ثم امتلك سكان وادى النيل مختلف عناصر الحضارة التي ستبدأ الآن في الازدهار بإيقاع متسارعا.

اعتمدنا حتى الآن في عرضنا لحضارة العصر الإنيوليتي على المصادر الأركيولوجية وحدها التي سمحت لنا بإعادة صياغة كبرى انتصارات حضارة وادى النيل لعصر ماقبل التاريخ في خطوطها العريضة: الزراعة وتربية الماشية والنسيج وقطع الأحجار

فى العصر الحجرى الحديث، والمعادن وتقنيات البناء والتشييد، ثم الفن وتطور الدين فى العصر الإنيوليتى. لقد أكدنا منذ البداية فى مؤلفنا هذا على قدم الحضارة المصرية واستمراريتها. وبالنظر إلى أنها لم تتوقف أبداً توقفاً قاطعاً، فقد احتفظت على الدوام بذكرى أقدم العصور، فظهرت المصنفات فى العصور التاريخية لتضم التقاليد المتواترة حول ماحدث فى مصر قبل ظهور التاريخ المدون، بل وقبل توحيد البلاد. هذه النصوص التى تضمها مايعرف اصطلاحاً **بمتون الأهرام**، لم تدون فى أهرام الجيزة الشامخة، بل على السطوح الداخلية للأهرام الأقل شأناً، التى شادها ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة.

وتشير هذه الوثائق على مايبدو إلى أحداث وقعت فى بداية العصر الإنيوليتى. وللأسف ترتبط هذه الوثائق بأحداث وقعت فى مركز الشمال الحضارى الذى لم يصلنا عنه وثيقة أركيولوجية واحدة. ومن ثم يستحيل البرهنة على صحة الوقائع التى نستخلصها من **متون الأهرام** بالاعتماد على المصادر الأركيولوجية. وتنبئنا هذه النصوص، إذا ما أخذت على علاتها، بأنه قبل اندماج الشمال والجنوب، كان الوجه القبلى يمثل مملكة الإله «ست»، فى حين قام تجمع فى الوجه البحرى يضم أقاليم غرب الدلتا، وآخر معارض له يضم الأقاليم الشرقية من الدلتا. وعلى الأرجح فإن أوزيريس ملك الشمال قد تولى توحيد التجمعين

الشرقى والغربى، ثم شن خليفته حورس هجوماً على مملكة ست الجنوبية فاستولى عليها . وهكذا قام على مايبدو نظام ملكى موحد حكم مجمل تراب مصر، لكنه لم يدم طويلاً على مايظن، وانقسم على جناح السرعة: فملك يحكم الجنوب من مدينة الكاب، وآخر يحكم الوجه البحرى من مدينة بوتو - تل الفراعين حاليا. ويرى عالم المصريات الألمانى «كورت زيته» Sethe (١٨٦٩ - ١٩٣٤)، أن مصر قد أخذت بالتقويم الشمسى خلال مرحلة الوحدة الأولى وهو مايقابل حوالى عام ٤٢٠٠ ق.م، ويرجح أن عاصمة البلاد كانت - قرب القاهرة - عند هليوبوليس. وإذا صحّت هذه الفرضية - إذ أنها مجرد فرضية ليس إلاّ - لأمكن إيجاز تاريخ حضارة ماقبل التاريخ فى مصر على النحو التالى: من عام ٥٠٠٠ إلى عام ٣٨٠٠ تقريباً: العصر الحجرى الحديث وبداية الإنيوليتى. وكانت مصر منقسمة، على مايبدو، إلى مركزين حضاريين، الأول فى الشمال والثانى فى الجنوب. حوالى عام ٣٧٠٠: ظهور المعادن وقيام الشمال بتوحيد نفسه ثم بغزو الجنوب على مايظن، فى بداية الألف الرابع، وحوالى عام ٣٦٠٠: قام نظام مصر، وكان مركزه، على مايبدو، فى هليوبوليس. ولكن سرعان ماخبا نجم هذا النظام الملكى لينقسم إلى مملكة فى الجنوب وعاصمتها الكاب وكانت منافسة لمملكة فى الشمال وعاصمتها بوتو، على مايظن.

إن إعادة صياغة الأحداث على هذا النحو من - ٥٠٠٠ إلى - ٣٠٠٠، لأمر مغر حقاً . ولكن يشدد الكثيرون على ضعف البراهين

المعضدة لها، ويميل الكثيرون بالأحرى إلى اعتبار أن وحدة البلاد كانت من صنع الجنوب وأن مملكة هليوبوليس فى عصر ماقبل التاريخ ليست سوى رؤية ذهنية.

٥ – نهاية عصر ماقبل الأسرات والعصر الثينى (٣٠٠٠ – ٢٧٨٠)

لم نعثر يقيناً عن آثار لوجود «مينا» الذائع الصيت، ومؤسس النظام الملكى الفرعونى، بل ومن الراجح أن ينسحب هذا الإسم على عدد من الملوك. وفى المقابل فبين أيدينا وثائق عن الفترة السابقة مباشرة على توحيد البلاد. فقد عثر فى هيراكونبوليس – الكوم الأحمر حالياً (راجع ملاحق الكتاب: الخريطة رقم ١) التى كانت على مايبدو عاصمة ملوك الجنوب لهذه الفترة، على آثار تمثل ملكا يدعى الملك العقرب، وهو يهم بمحاربة المصريين القاطنين فى الشمال. ويرجح أن العقرب قد بسط سلطانه حتى شمالى منف، كما يبدو أن خليفته نعرمر كان موحد البلاد الحقيقى. ويظهر هذا الملك على سطح صلاية وهو يحارب أيضا المصريين القاطنين فى الشمال، بيد أنه كان يرتدى، منذ الآن، شارات ملك الجنوب والشمال. ومن ثمّ فقد توحدت البلاد فى شخصه، ولهذا السبب يتساءل البعض عما إذا كان هذا الملك هو مينا.

أما عن الأسرتين الأوليين اللتين دامتا خمسة قرون فى الزمان، واستهلهما الملك «نعرمر» فإننا لا نعرف سوى النذر القليل. بل إن

العاصمة «ثنى» ذاتها - التى كانت على مايبدو قرب أبيدوس - العرابة المدفونة حاليا - فقد تعذر تحديد موقعها على وجه الدقة، ولا ندرى إن كانت مقابر ملوك الأسرة الأولى التى عثر عليها فى جبانة أبيدوس ليست سوى مجرد مقابر تذكارية.

تضم **الأسرة الأولى** ثمانية أو سبعة ملوك (حسبما اعتبرنا «نعرمر» مؤسس الأسرة أو مجرد سابق عليها. وهؤلاء الملوك هم: **نعرمر وعحا وچر وواچى** (أو چت كاعرف فى الماضى) و **دن** (ويعرف أحياناً باسم واديمو) **وعچ إيب وسمرخت وقا**. وعلى كل حال لا تتطابق هذه الأسماء كما نعرفها من الآثار وأسماء القوائم الملكية التى تم تصنيفها فى وقت لاحق ولا مع قائمة مانتون، ولا ينبغى أن نشغل بالنا هنا بأمر هذا التطابق، كانت الأسرة الأولى مرحلة تنمية متسارعة، ومن المؤسف له حقاً أننا نفتقر إلى الوثائق، وهو مايحول دون تتبع هذه التنمية ودراستها. إنه عصر تأسيس مصر كما ستبدو خلال الدولة القديمة، وقد جنح مركز المملكة إلى الاستقرار عند الطرة الجنوبى للدلتا، بين الشمال والجنوب تماماً. ويبدو أن تأسيس مدينة منف التى أصبحت عاصمة الدولة القديمة - يرجع إلى عهد عحا. كما شهدت هذه المرحلة توسعاً حضرياً يشهد على أن تنمية البلاد قد بلغت شأواً عظيماً. ومنذ ذلك الوقت المبكر، شرعت الأمة الوليدة تصطدم بأعدائها «التاريخيين»، نعنى النوبيين فى الجنوب،

فشن عليهم چر فى أعقاب عحا معارك مظفرة حيث توغل فى عمق أراضى النوبة. وسجل انتصاره فى نقش محفور فوق قمة جبل الشيخ سليمان (على بعد ١٥كم جنوب وادى حلفا) عند مدخل الجندل الثانى. وأخيراً فإن الدفنات النوبية المعروفة «بالمجموعة أ» - المعاصرة للأسرات المصرية الأولى - تقف شاهداً على تأثير مصرى أكيد، إن لم تكن بالفعل على تبعية كولونيالية جزئية. كما أن الفراعنة الثينيين قد حققوا نجاحاً مماثلاً، على مايبدو، عند كبح جماح الليبيين غرباً وكذلك الأسيويين شرقاً، بعد أن اصطدم بهم «سمرخت» على مايظن، فى غمار حملته على سيناء. وأخيراً جرّد، «واچى» الملك الثعبان - حملة إلى الصحراء الشرقية صوب البحر الأحمر عند مستوى مدينة إدفو. (راجع الخريطة رقم١). وإذ واصل ملوك مصر أولى هذه المعارك الخارجية، فقد استمروا يباشرون أعمال التهدئة فى الداخل، إذ لايبدو أن أهل الشمال قد تقبلوا على الدوام وعن طيب خاصر هيمنة ملوك انحدروا أصلاً من الجنوب على مايظن.

تضم **الأسرة الثانية** سبعة ملوك طبقاً لما عثر عليه من آثار تسعة أو عشرة حسب قوائم الملوك. وسينصب اهتمامنا على الملوك الذين عثر على آثارهم وهم: **«حوتب سخموى» و «نب رع» و «نى نتر»** (المعروف أيضا تحت إسم **أنتريمو»**) و **«ونج» و«سندج» و «پر إب سن» و«خع سخم» و «خع**

سخموى»، ولا يتميز هؤلاء الملوك عمن سبقوهم فى شئ؛ فاستمرت الحروب ضد النوبيين، وكذلك عمليات إخضاع الشمال. ومن ثم يمكن أن نتطلع إلى تطور مصر التاريخى فى ظل الأسرتين الأوليين كسياق واحد. ويتميز هذا التطور بتقدم الكتابة وتنظيم المؤسسة الملكية. والأمران مرتبطان دون شك، فما كان للكتابة أن تنمو وتتقدم إلا مدفوعة بزيادة سلطات النظام الملكى، والعكس بالعكس. وبلغت الملكية قدراً من القوة يسّر عليها إرسال الحملات إلى خارج مصر، فوصلت الجيوش المصرية حتى سيناء، بحثاً عن الأحجار الكريمة وتوغلت فى أعماق النوبة وفى الصحراء الشرقية. وشرع تشكيل النظام الملكى يكتمل شيئاً فشيئاً، وكم كنا نود أن نعرف هل كان النظام ملكية مطلقة منذ ذلك العصر، مثلما كان الحال فى ظل الدولة القديمة، وهل ظلت القبائل أو القرى تتمتع بقدر من الحياة المستقلة؟ لا نعرف شيئا عن ذلك. ولكن تبرز حقيقة سادت وهيمنت كقسمة مميزة للنظام الملكى فى مصر حتى الغزو اليونانى: نعنى بذلك السمة الدينية التى طبعت هذا النظام. إن فرعون إله على الأرض، ومن ثم اكتسبت حفلات التتويج والأعياد الدينية التى لا حدّ لها فى ذلك العصر دلالة مزدوجة، فهى إدارية ودينية على حدّ سواء، فلا انفصال بين ما هو مقدس وما هو مدنى، فقد يكون الموظف كاهناً شأنه فى ذلك شأن الملك. ويبدو أن تعقد سلك الوظائف ونظمها قد أخذ ينمو ويتسع فى ذلك العصر.

وإذ نلاحظ أن الهيكل الوظيفى قد أخذ بالتدرج الهرمى فإننا لا ندرى إن كان قد عرف التخصصات الدقيقة أيضاً، وتابعت البلاد تنظيم اقتصادها، وشاهدنا الملك يشرف بنفسه مرتين على شق القنوات. إن المشرف على صيانة القنوات كان واحداً من أبرز الموظفين وأحد ألقابه «حاكم الإقليم» الذى تقع على عاتقه شئون الإدارة المحلية بأسرها، ومن ثم تمثل الأسرتان الأوليان عصر بلورة الحضارة المصرية وقد شهدت العصور التى سبقتها تراكم العناصر المادية الضرورية لهذه الحضارة: كانتشار الفلاحة فى أرض مصر وصياغة الديانة واللغة والكتابة والتوصل إلى تقنيات المعادن والفخار والنسيج إلخ.. لقد حولت الأسرتان الأوليان هذه الحضارة من مجرد إمكانية إلى مملكة موحدة سياسياً، عندئذ تبرز المسألة «السياسية» التى كانت غائبة عنّا فى عصر ماقبل التاريخ، ولذا نشعر بالأسف الشديد لافتقارنا إلى مايوضح سياق تطور تنظيم البلاد. لقد أتاحت لنا الأركيولوجيا (علم الآثار) ودراسة الخرافات الدينية أن نتصور من جديد عملية توحد البلاد فى خطوطها العريضة وكيف انصهرت جماعتا الجنوب والشمال بعد تناحر مرير. ولكن لا الوثائق الأركيولوجية ولا الأساطير، تلقى الضوء على ولادة «الدولة» الفرعونية التى تظهر فى العصر التالى مكتملة الأركان، ونتعرف مع بداية الأسرة الأولى على وجود ملك واحد، وأن مصر تنقسم إلى أقاليم، عُيِّنَ على رأس كل منهما

موظفون ملكيون. ولكن مانشاهده هو النتيجة، ولا ندرى كيف كان الطريق إليها . وتنعقد الآمال الضخمة على الحفائر الجارية فى الوقت الراهن فى سقارة وحلوان، وتضم عدداً كبيراً من مقابر الأسرات الأولى. ونخص بالذكر إعادة إستكشاف مواقع نقادة وهيراكونبوليس (الكوم الاحمر حاليا) فى جنوب البلاد . وربما ألقت هذه الحفائر الجديدة ضوءًا جديداً على تنظيم المؤسسة الملكية، وربما دفعتنا أيضاً كما تشير بعض الدلائل، إلى الرجوع لبداية تنظيم البلاد إلى زمن أكثر إيغالاً فى الماضى، فى قلب الأزمنة الغابرة التى عرضنا لها لتونا بإيجاز.

الفصل الثانى

مصر الكلاسيكية

١ - الدولــة القديمــة

٢٧٨٠ إلى ٢٤٠٠ ق.م على وجه التقريب

عندما كان المصريون فى فترات الانحطاط يتخيلون عصراً ذهبياً، كانت الدولة القديمة هى قبلة أفكارهم، فيسعى فنانوها وكتبتها سعياً حثيثاً، إلى تقليد لغة هذا العصر وفنونه. ولا ندرى ماهى الوثائق التى كان يعتمد عليها المصريون لمعرفة أجدادهم الأولين، إلاّ أننا بالتأكيد أقل حظاً منهم، إذ مازالت معرفتنا بتاريخ الدولة القديمة معرفة سيئة. صحيح أن هذا العصر خلّف وراءه آثاراً عديدة، وعوضاً عمّا نعانيه من قصور فى التاريخ السياسى والعسكرى والإدارى، فقد بلغت معرفتنا بالحضارة المادية قدراً معقولاً. وسيقتصر عرضنا هنا على الإطار التاريخى للدولة القديمة التى تعتبر نظر الكثيرين من أزهى عصور الحضارة المصرية.

كما أنه لا يوجد خط فاصل واضح بين العصر الإنيوليتى والأسرتين الأوليين، كذلك لا وجود لفاصل بينهما وبين بداية الدولة القديمة. إن «جسر» ثانى ملوك الأسرة الثالثة - التى يبدأ بها هذا العصر - هو على ما يحتمل إبن «خع سخموى»، آخر ملوك

الأسرة الثانية، بيد أن ماشهدته الحضارة عندئذ من تطوير ـ ولاسيما في فنون العمارة - يحملنا مع ذلك على أن نبدأ أسرة جديدة، والحدث الأهم الذى وقع فى ظلّ حكم «چسر» هو انتقال مركز البلاد السياسى - ولو نظرياً - من أبيدوس إلى منف، الأمر الذى يبرر، على كل حال، تصنيف الدولة القديمة كمرحلة منفصلة، فعرفت أحياناً لهذا السبب **بالدولة المنفية أو بالعصور المنفية**. فبعد أن أمر «چسر» بأن تشيد له مقبرة فى «ببيت خلاف» على مقربة من أبيدوس، أمر بأن يشيد له هرم مدرج فى سقارة على مقربة من منف. وخلال حكم «چسر» أيضا على مايبدو - قام فرعون بتعيين وزير أول ليعاونه فى تصريف الشئون الإدارية، بعد أن توسعت الإدارة الملكية أو ازدادت تعقيداً. إن منصب الوزير الأول الذى شغله «إيمحوتپ» - قد جرت العادة أن يطلق عليه فى لغات الغرب إسم «وزير» vizir قياساً على ماهو متبع فى الدول الشرقية القريبة العهد، ومع أنه لم يحمل فعلاً لقب «وزير» («تشاتى»)، إلا أنه باشر اختصاصه. ونسجت فى وقت لاحق أسطورة حول شخصية «إيمحوتپ»، فارتقى إلى مصاف الآلهة باعتباره ابن الإله پتاح فى منف، وإليه يرجع الفضل فى تشييد المجموعة المعمارية الرائعة لهرم سقارة المدرج وملحقاته. ونستنتج من العديد من الدلائل أن «چسر» قد شنّ غارات عسكرية على النوبة ليواصل ما انجزته الأسرة الأولى فى هذا المضمار.

وهكذا نهج سياسة ظلت خطاً ثابتاً طوال الدولة القديمة، حيث ركز المصريون فى ذلك العهد جلّ اهتمامهم على جيرانهم فى الجنوب أكثر من اهتمامهم بجيرانهم فى الشمال الشرقى. وحسبما ورد فى نص، يرجع فى الحقيقة إلى العصر المتأخر، فإن «چسر»، كان أول من توغل فى النوبة، فيما وراء الجندل الأول، ولكن كما رأينا فإن الملك «چر» كان قد وصل من قبل إلى الجندل الثانى، ولا ينبغى على ما يفترض أن نفهم النص على أنه إشارة إلى التغلغل فى أراضى النوبة، بل إلى الاستيلاء عليها وضمها إلى مصر. وإذ كانت سيناء لا غنى عنها للإقتصاد الصناعى والدينى فى مصر بما تضمه من محاجر الأحجار الكريمة وربما النحاس، فقد ظلت هدفاً للإغارات وتشهد لوحة محفورة فى الجبل على وصول قوات «چسر» إليها.

إن نهاية الأسرة الثالثة معروفة معرفة سيئة جداً إذ لا نكاد نعرف شيئاً عن ملوك الأسرة الآخرين: «سانخت – نبكا» و«خع با» و «نمركا» وأخيرا «حو» أو «حونى» (أى الضرّاب)، صاحب الهرم القائم فى ميدوم. وعلمنا من الاكتشاف الموفق فى سقارة عام ١٩٥٢ لهرم لم يكتمل أن اسم خليفة «چسر» كان يدعى «سخم خت»، بعد أن ظلت معرفتنا به قاصرة على نقش فى سيناء.

الاسرة الرابعة:

كان من المفترض أن تكون الأسرة الرابعة التى تبدأ بحكم

«سنفرو» خليفة «حوني»، من أفضل مانعرفة من أسرات مصر الفرعونية، بالنظر إلى أنها أسرة بناة الأهرام الكبرى، ولكن الحقيقة خلاف ذلك، فأفضل ماوصلنا من معلومات يخص أيضاً «سنفرو» مؤسس الأسرة، وإن كان من الأصوب القول أن معلوماتنا عنه هي الأقل سوءا. وبالفعل تخبرنا أجزاء الحوليات المدونة على الحجر الذى يعرف اصطلاحاً بحجر پالرمو، بأن عهده قد شهد حملة إلى النوبة وأخرى إلى ليبيا وأن جنوده قد وصلوا أيضاً إلى سيناء كما يشهد أحد المخربشات على ذلك. وأخيرا كان «سنفرو» بنّاءً عظيماً كما تشير إليه ماشيد أو عدّل من أهرام، بناءً على طلبه، فإحداها فى ميدوم والآخران فى دهشور. ولتنفيذ مشاريعة الإنشائية فقد أقام على مايبدو علاقات مع سوريا التى كانت تمده بالأخشاب.

ولن يبخل المرء بشىء مقابل أن يحصل على معلومات عن خلفاء سنفرو الثلاثة: «خوفو» و«خفرع» و «منكاورع»! إن مانعرفة عن الملوك الثلاثة الذين شادوا الأهرام الكبرى – أهمّ عمائر مصر – هو فى الحقيقة أقل بكثير مما نعرفه عن سلفهم. لقد رأى الإغريق والكثير من المحدثين الذى نسجوا على منوالهم أن هؤلاء الفراعنة كانوا طغاة سحقوا الشعب المصرى تحت وطأة أعمال السخرة. لقد برهن چورج بوزنر G. Posener أن هذا التقليد المتواتر إنما يرجع إلى الأدب المعادى للنظام الملكى الذى شاع فى

مصر خلال عصر الانتقال الأول، ولكن الذى حدث فى واقع الأمر ان إقامة الشعائر الجنائزية التى تخص هؤلاء الملوك لم تتوقف أبداً واستمر حتى الغزو المقدونى، الأمر الذى لا يتفق مع ماشاع بشأنهم كملوك مكروهين. وباستثناء الحملات إلى سيناء فى عهد خوفو فإننا لا نعلم شيئاً عن النشاط العسكرى لملوك هذه الأسرة، وباختصار، فإن الأمر أشبه مايكون كما لو كان كل مانعرفه عن لويس الرابع عشر ملك فرنسا - قد وصلنا من خلال قصر فرساى Versailles . ومازالت آثار هؤلاء الملوك تقف فى مكانها وفى كمالها، تشهد دون جدال على حضارة تفوقت تقنيا وإداريا على حدّ سواء. ولكن كل مانعرفه يقف عند هذا الحدّ. بل إن ترتيب فراعنة هذه الأسرة غير مؤكد. فمازالنا نجهل على وجه التحديد ترتيب الملك «جدفرع»، كان ثانى أبناء الملك «خوفو» واغتصب الحكم، على مايبدو، بعد أن أمر بقتل أخيه. وبعد أن اغتيل هو شخصياً حل «خعفرع» مكانه، على مايظن. أما أواخر ملوك الأسرة وهم «بيكريس» و «سبركيس» و «ثمفثيس»، طبقاً لراوية مانتون، وفيما عدا «سبركيس» (أو «شپسسكاف» كما ورد على الآثار) فإننا لا نعلم إن كانوا قد وجدوا بالفعل.

الأسرة الخامسة : (٢٥٦٣ - ٢٤٢٣)

تحدثنا حكاية مصرية من الدولة الوسطى عن تفاصيل منشأ الأسرة الخامسة. فقد حدث على مايعتقد أن زوجة أحد كهنة الإله

رع حملت بالملوك الثلاثة الأوائل لهذه الأسرة وأن الإله رع ذاته كان والدهم، ومن المؤكد أن عبادة إله الشمس رع قد بلغت في هذا الزمن شأواً عظيماً، ربما لأن هليوبوليس كانت ببساطة الموطن الأصلي لهذه الأسرة – حيث عبادة الإله رع، أو ربما أيضاً بسبب الدور الذي لعبه كهنة هذه المدينة عند تولي هذه الأسرة مقاليد الحكم: ومهما كان الأمر، فمنذ ذلك العصر والفراعنة يحملون بصفة دائمة لقب «ابن رع». وبداية فإن سطوة الدين على الحياة في ذلك العصر، تجد ترجمتها في أسماء الملوك، فاسم رع يظهر فيها في أغلب الأحيان. وهؤلاء الملوك هم: «أوسركاف» و«ساحورع» و«نفرايركارع» و«شبسكارع» و «نفر إف رع» و «ني أوسر رع» و «منكاوحور» و«چدكارع – إسيسي» و «أوناس». كما حددت الديانة الشمسية عمارة المعابد التي شيدت في ذلك الحين. ويشير حجر بالرمو إلى تشييد العديد من المعابد. وأخيراً، يرجع تصنيف متون الأهرام إلى هذا العصر. (بل ويتساءل البعض إن كان تأليفها لا يعود إلى هذه الفترة)

وعلى صعيد التاريخ الخارجي، يبدو أن الأسرة الخامسة قد ولت وجهها شطر آسيا، إما لوقوعها ضحية هجوم أو لرغبتها في التوسع في ذلك الاتجاه. وخرج «ساحورع» و«ني أوسر رع» و«منكاوحور» و«چدكارع» على رأس الحملات العسكرية إلى سيناء وأيضاً إلى آسيا وليبيا.

الأسرة السادسة (٢٤٢٣ – ٢٢٦٣ تقريباً) :–

جاء الانتقال من الأسرة الخامسة إلى الأسرة السادسة، ذات الأصول المنفية، دون صدام واضح، ونكاد لا نعرف شيئا عن أول ملوكها «سحتب تاوى تيتى» وأيضاً عن خلفه «أوسركارع» الذى كان حكمة قصيراً جداً. ونصبح أوفر حظاً مع «بيبى» الأول، فنعلم أنه شيّد العديد من المعابد ونعرف بعض تفاصيل حياة الملك بفضل ماوصلنا من السير الذاتية لكبار الموظفين. تزوج «بيبى» الأول على التوالى من ابنتى أحد كبار موظفى أبيدوس ورزق منهما بولدين تعاقبا على عرش مصر. لقد وصلنا العديد من الوثائق عن نشاط «بيبى» ولاسيما المراسيم الخاصة بإقامة المؤسسات الخيرية. وهذه المراسيم عظيمة الفائدة لدراسة القانون المصرى فى أقدم العصور. وشأنه شأن أسلافه، ظل «بيبى» يراقب النوبة فى حذر وأعدّ العدّة للقيام بالعديد من الحملات ضد الأسيويين. وكان «أونى» على رأس هذه الحملات وخاض خمس معارك على الأقل، ضد البدو فى آسيا، وهو مايشير على مايبدو إلى أن البلاد المعادية لم تكن تخضع للاحتلال تحت أى ظرف من الظروف بل كانت الجيوش المصرية تكتفى بمجرد شنّ غارات كبيرة عليها.

أما خليفة «بيبى» الأول المباشر فهو ابنه «مرنرع» الذى يعتقد أنه توفى فى مقتبل العمر بالنظر إلى أن مدة حكمه لم تتجاوز

الخمس أو الست سنوات. وواصل «مرنرع» على مايبدو سياسة فرض تبعية النوبة لمصر، وهى السياسة التى وقع على عاتق خلفه أن يستكملها، فأرسل إلى النوبة العليا شخصاً يدعى «حرخوف» الذى توغل إلى أعماق إفريقيا.

ونتيجة وفاة «مرنرع» المبكرة، اعتلى العرش «بيبى» الثانى وهو أخوه نصف الشقيق، ولم يتجاوز السادسة من عمره، فكانت سنوات حكمه أطول ماعرفته مصر: إذ دامت أربعا وتسعين سنة. وفى عهده واصل «حرخوف»، مابدأه فى عهد «مرنرع»، فعمل على استتباب الأمن فى ربوع النوبة. وخرجت الحملات التجارية إلى بيبلوس وإلى بلاد بونت» أى على امتداد الشاطىء الإفريقى للبحر الأحمر - جهة إريتريا الحالية. وأخيراً تشير أعمال التنقيب الحديثة فى بلدة «بلاط» إلى أن واحات الصحراء الغربية، والواحة الداخلة على وجه الخصوص، كانت ملتقى الطرق بين مصر من ناحية، وبين النوبة وليبيا من ناحية أخرى، وهكذا لعبت دوراً بارزاً فى علاقات مصر الخارجية.

وفى ظل حكم بيبى» الثانى بدأ اضمحلال الدولة القديمة، إما لأن مدة حكمه قد طالت أكثر من اللازم، أو لأن الملك، وقد تقدمت به السن، لم تتوفر له العزيمة المطلوبة للإبقاء على وحده البلاد التى كانت ترتكز فى واقع الأمر على شخصه وحده. ومع ذلك، وطبقاً لما رواه مانتون، تربّع أيضاً على عرش مصر خلفاً لـ «بيبى» الثانى -

ملك وملكة، هما «مرنرع» الثانى و«نيتوكريس» (نيث إقرث)، دون أن نعلم شيئاً محدداً عن حكمهما. وهكذا انتهت الدولة القديمة على هذا النحو من الغموض، إلا أنها كانت عصراً عرفت فيه مصر قدراً كبيراً من الرخاء الداخلى. وهو بكل تأكيد العصر الذى بلغت فيه السلطة الفرعونية أوجها. وكان الملك آنذاك إلهاً على الأرض - بكل مالهذه العبارة من قوة، فيخشاه الناس ولكنهم يطيعونه. وفى ظل مافرضه من انضباط صارم عرفت مصر على مايبدو ازدهاراً اقتصاديا لن تستعيده فيما بعد إلا بصعوبة وعلى فترات متفاوته. ولم تصلنا المعلومات الكافية عن مدى الإشعاع الخارجى للدولة القديمة، ولكن واقع وجود معبد مصرى فى بيبلوس فى ذلك العصر لبرهان على أن هذا الإشعاع لم يتوقف عند حدّ إعادة فتح النوبة، الأمر الذى ظل على كل حال المأثرة الكبرى لهذا العصر.

٢ - عصر الانتقال الأول

قد تكون المرحلة الفاصلة بين الطور الأول من تاريخ مصر الكلاسيكية وطوره الثانى - مرحلة نتحرق شوقاً إلى معرفتها، إذ يبدو مؤكداً استناداً إلى المصادر التى تحت أيدينا، أنه قد ظهر إلى الوجود منذ عهد «بيبى» الثانى، مايشبه الاختمار الاجتماعى، وسرعان ما استعصت أوضاع الثورة الاجتماعية من جراء تفتت السلطة المركزية. وهكذا ولفترة تزيد على قرن من الزمن تقاذفت

مصر القلاقل الاجتماعية وفوضى الأقاليم التى زاد من حدتها، على مايعتقد، التسلل الخارجى. وتعرف هذه الفترة بمصر الانتقال الأول. إنها فترة يسودها الغموض، ويبدو أنها بدأت فى واقع الأمر منذ عهد «بيبى» الثانى. وتتسم باضمحلال سلطة منف المركزية والثورة الاجتماعية فى آن واحد. وإذا كان فى الإمكان أن نستشف اضمحلال السلطة المركزية من خلال الوثائق المعاصرة فالثورة ذاتها تظل غير معروفة إلا من خلال نصوص أدبية تم وضعها بعد وقوع الأحداث.

رأينا أن سبب اضمحلال السلطة الملكية يرجع فى واقع الأمر إلى أن منصب حاكم الإقليم قد أخذ يتحول إلى منصب وراثى. ويرد المعترضون بأن ضعف الملوك قد سمح بأن يُورّث «حكام الأقاليم» سلطاتهم إلى أبنائهم. وربما كان ينبغى البحث عن السبب الدفين وراء اضمحلال النظام الملكى فى فقدان الملك هيبته، إن لم يكن فى ضياع الطابع المقدس لشخصه. يتحدث الناس عادة عن قيام الإقطاع فى مصر فى ذلك الزمن. ولكن ينبغى أن نبتعد عن أى تلاعب بالألفاظ، فمصر لم تعرف قط النظام الإقطاعى، بما يحمله هذا اللفظ من معنى فى تاريخ العصر الوسيط. فلم يتعد الأمر وجود حالات من اغتصاب السلطة على المستوى المحلى، وهو مايختلف كل الاختلاف. وقد يعترف الملك بالأمر الواقع، إلى هذا الحدّ أو ذاك، لعجزه عن القضاء عليه. ولم

يصل الوضع أبدا إلى حد إقامة نظام شبيه بذلك الذى قام على أنقاض الإمبراطورية الرومانية.

وربما جاءت إغارات البدو التى عجز الملك عن صدّها لتعجّل من اضمحلال السلطة الملكية فأضحى هذا الاضمحلال على مايبدو فى أصل القلاقل الاجتماعية التى لا نعرفها إلا من خلال بعض النصوص المثيرة جداً لاهتمامنا، فخير مانفعل هو الاستشهاد بها: «الفقراء صاروا يملكون الخيرات. من كان عاجزاً عن أن يوصى بأن يصنع له نعلان، يملك الآن الكنوز.. والأثرياء فى أنين، فى حين يرتدى الفقراء الفرح. ويقول أهل المدن: «فلنمسك بالأثرياء الذين بين ظهرانينا..» القصور وصنوف الأساطين أضرمت فيها النار.. والأقاليم خرّبت.. والذهب والفضة والأحجار النفيسة تزين جيد العبيد، فى حين تقول السيدات النبيلات: «واهاً! لو كان عندنا على الأقل ما نأكله». وهنّ حزانى بسبب الأسمال التى تكسوهنّ». وتقوض الاقتصاد (وليس توزيع الثروات فحسب): «فهناك نقص فى المصنوعات.. والبلاد فى خراب تام، ولم يبق شئ، ولا حتى سحم الأظافر لمن كان يمتلكه فى الماضى.. يقيناً لقد زال كل ماهو طيب». وكما لاحظنا فإن هذه النصوص واضحة كل الوضوح. لقد قامت فى مصر ثورة حقيقية. فكم كنّا نود لو كان فى مقدورنا أن ندرسها عن كثب. ولكن لا نجد بين أيدينا للأسف وثيقة تاريخية واحدة تساعدنا على

التصدى لهذه الدراسة، اللهم إلاً النصوص التى اخترنا منها بعض المقتطفات والتى ترجع إلى عصر لاحق يبعد كثيراً عن زمن هذه الأحداث. وهذه النصوص هى من وضع كتبة يمكن أن نطلق عليهم وصف «المحافظين» وكانوا مكلفين خصيصاً من جانب ملوك الأسرة الثانية عشرة بتمجيد عودة النظام والاستقرار. فكان من مصلحتهم المبالغة فى وصف انحلال المجتمع إبرازاً لقيام ملوك الدولة الوسطى بنشر الأمن والاستقرار. بل إننا لا نعرف إن كانت الثورة قد شملت البلد بأسرها أو ربما تمركزت في منطقة منف.

ولا نعرف بشكل أفضل غيرها من الأحداث التى وقعت خلال هذه الفترة الممتدة. أما القوائم الملكية المصرية ومانتون فيذكرون أسماء الملوك موزعين على أسرتين (السابعة والثامنة)، بيد أننا لا نعلم شيئا عن هؤلاء الأشخاص. فالأسرة السابعة حسب مانتون (وتضم سبعين ملكاً - إجمالى مدة حكمهم سبعين يوماً) لم توجد على الأرجح. ويقتصر مانعرفه عن الأسرة الثامنة، على القوائم الملكية لأن مانتون قد اكتفى بتحديد عدد ملوكها الإجمالى وهو ثمانية عشر ملكاً، دون أن يذكر أسماءهم.

وفيما مضى، كان من المتفق عليه أن سبعة من حكام أقاليم جنوب الصعيد قد التفوا - مع بداية الأسرة الثامنة - حول حاكم إقليم «كوبتوس» - قفط حاليا - ليشكلوا مملكة مستقلة. وساد الاعتقاد أن هذه المملكة المحلية لم تعمّر لأكثر من أربعين عاماً.

ولكن هايز W.C. Hayes برهن فى عام ١٩٤٦ على أن الأسرة المعروفة **بالقفطية** لم يكن لها أى وجود فى الماضى، وانتهت الأسرة الثامنة المنفية (نسبة إلى مدينة منف) حوالى عام ٢٢٠٠ ق.م نهاية غامضة. كانت مصر قد انقسمت آنذاك إلى ثلاثة أقسام: ففى الشمال، ظهر الغزاة الأسيويون حيث كان لهم بالضرورة اليد العليا. أما فى وسط البلاد، فقد ظل قائماً فى منف ماتبقى من النظام الملكى المركزى العتيق، وفى مصر الوسطى، تلقَّب «خيتى» حاكم هيراكليوبوليس - إهناسيا حالياً - بلقب ملك مصر العليا والسفلى، وسرعان ما أصبح يتحكم فى منطقة منف وفى الفيوم أيضاً. أما فى جنوب البلاد، فقد نحىَّ حكام طيبة ملوك منف، وجمعوا، على مايبدو، من حولهم الأقاليم الجنوبية. واستمرت هذه الأوضاع بعض الوقت على مايظن. وإذا استبعدنا الدلتا، تبدو مصر وكأنها قد عادت أدراجها إلى عصور ماقبل التاريخ، لتنقسم إلى مجموعة من الأقاليم، بعضها فى مصر الوسطى شمالاً، والأخرى فى الجنوب. وزعماء مصر الوسطى (من الأسرتين الإهناسيتين) هم **«خيتى» الأول والثانى والثالث ومرى كارع** (إلى جانب العديد من الملوك الذين لا نعرف أسماءهم). أما زعماء الجنوب فى طيبة فهم الأنانفة والمناتحة.

وإذ شرعت كل من المجموعتين توطد مركزها تدريجياً داخل ممتلكاتها، لم يلبث الصراع أن تفجر بينهما. ولفترة طويلة اكتنف

الغموض الوضع، وتناوب الطرفان الانتصارات والهزائم. وعلى كل حال فإننا لا نعرف هذه المرحلة معرفة طيبة إلى أن حدث حوالى عام ٢٠٦٠ أن حلّت اللحظة التى توحدت فيها مصر من جديد بزعامة أحد المناتحة، سليل حكام طيبة وزعماء أقاليم الجنوب، واعتباراً ومن هذا التاريخ تبدأ الدولة الوسطى.

٣ - الدولة الوسطى ٢٠٦٥ - ١٧٨٥ ق . م

غداة عصر القلاقل الطويل الذى انتهى عام ٢٠٠٠ على وجه التقريب، استعادت السلطة وحدتها فى مصر بفضل حكام إقليم طيبة. وإذ بدأت هذه الوحدة على يد حكام هذا الإقليم ومنذ عصر ملوك هيراكليوبوليس (إهناسيا حاليا) بالتحديد، فإن استعادتها لم يكن من صنع فرعون واحدٍ، إنما كانت إنجازاً حققته أسرة ملكية بأكملها، هى الأسرة الحادية عشرة التى كانت، فى أيامها الأولى، معاصرة للأسرة العاشرة الإهناسية التى خلفت الأسرة التاسعة - الإهناسية أيضاً، التى أسسها خيتى الأول (راجع ماتقدم). وبينما ركز زعماء هيراكليوبوليس جلّ اهتمامهم على الدلتا، بل وتوصلوا إلى طرد البدو منها، فقد تحوّل زعماء طيبة صوب النوبة. وبفضل هاتين العمليتن الموازيتين، فى الجنوب وفى الشمال، اختمرت وحدة مصر. وسوف تأخذ الأسرة الحادية عشرة على عاتقها مهمة اتمام الوحدة وتوحيد الجنوب مع الشمال.

الأسرة الحادية عشر - (٢١٦٠ - ٢٠٠٠ ق.م تقريبا)

سبق أن عرضنا لتاريخ حكام طيبة الأوائل الذين حاربو ملوك

هيراكليوبوليس. وكان «المناتحة» أول من اتخذوا لقب ملك مصر العليا والسفلى، وحتى بضع سنوات ساد الاعتقاد بأن اسم «منتوحوتب» قد حمله خمسة فراعنة. وعلى أثر عمل انتقادى طويل للمصادر، أصبح من الأمور المتفق عليها بشكل عام أن عدد «المناتحة» ثلاثة، وأن «منتوحوتب» الأول (٢٠٦٥ – ٢٠١٥) هو الذى نجح فى نشر الأمن والسلام فى مصر. أما عن آخر ملكى هذه الأسرة وهما منتوحوتب الثانى والثالث، فلا نعرف عنهما شيئًا يذكر، اللهّم إلاّ أن مدة حكمهما كانت قصيرة.

فى مقدمة إنجازات الأسرة الحادية عشرة توحيد البلاد، بيد أن نشاطها لم يقف عند هذا الحد. فبعد أن وضع «المناتحة» حداً للسيادة الإقليمية التى نمت خلال عصر الانتقال الأول، واستعادوا السلطة المركزية، عادوا إلى انتهاج سياسة التوسع فى النوبة، حيث وصلوا إلى الجندل الثانى على مايبدو. كما جهزوا طريق وادى الحمامات الذى كان يربط مصر بالبحر الأحمر ويستخدم كنقطة انطلاق إلى سيناء وبلاد بونت (راجع ماتقدم). ويخترق هذا الطريق الصحراء الشرقية. وجرّد ملوك الأسرة الحادية عشرة الحملات العسكرية ضد البدو المنتشرين فى طول البلاد وعرضها وأقاموا فيها نقاط ماء.

الأسرة الثانية عشرة – (٢٠٠٠ – ١٧٨٥)

لا نعلم شيئًا عن كيفية الانتقال من الأسرة الحادية عشرة إلى

الأسرة الثانية عشرة، ولكن بالنظر إلى وجود وزير يحمل اسم «أمنمحات» في عهد ملوك الأسرة الحادية عشرة الأواخر، وهو ذات الإسم الذى سوف يحمله فيما بعد مؤسس الأسرة الجديدة فلربما يشير ذلك إلى اغتصاب السلطة. وتعتبر الأسرة الثانية عشرة التى أمسكت بزمام السلطة، حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م، من أعظم الأسرات فى التاريخ المصرى وأمجدها، ففى ظل إدارتها، لم تحافظ مصر على الاستقرار الداخلى فحسب، بل لقد وصل إشعاعها إلى خارج البلاد كما لم يحدث، دون شك، من قبل، بما فى ذلك زمن فراعنة الأسرة الرابعة العظماء. ورغم أن الأسرة تنحدر أصلاً من طيبة، فقد عادت لتستقر من جديد فى منطقة منف، فمن هنا كان يسهل عليها أن تدير دفة الأمور فى البلاد بأسرها.

ركز امنمحات الأول (٢٠٠٠ – ١٩٧٠) جلّ اهتمامه على مايبدو على الشئون الإدارية. وربما اعتمد عند تسلمه السلطة على فئة الأشراف بالأقاليم، وهو مايفسّر تجدد بعض نزعاتها الاستقلالية. ومن المحتمل أنه قد اهتم منذ ذلك الوقت بحماية حدود مصر الشرقية، ولكن خلفاءه هم بالتحديد الذين اضطلعوا بهذه المهمة. وفى النوبة توغل امنمحات الأول حتى وصل إلى كورسكو. وانتهى حكمه فجأة على أثر مؤامرة من تدبير القصر الملكى، وكان ابنه آنذاك فى ليبيا على رأس الجيش، ولكنه استطاع أن يعود فى الوقت المناسب لتسلم السلطة.

سنوسرت الأول (١٩٧٠ - ١٩٣٦).

واصل سنوسرت الأول سياسة أبيه فى النوبة، فتقدم حتى الجندل الثالث ووضع يده على مناجم الذهب فى هذه المنطقة. كان الطريق الموصل إلى هذه المناجم يبدأ من وادى حلفا، ولتأمين سلامة الحملات، أمر سنوسرت بأن تشيد فيه قلعة عند بوهن. ومنعاً لتكرار الأحداث التى أدمت نهاية حكم أبيه قام سنوسرت - وهو على قيد الحياة - بإشراك ابنه البكر فى العرش. وساد خلفاؤه على هديه.

كانت سنوات حكم **امنمحات الثانى وسنوسرت الثانى** على قدر كبير من الخمول وعلى كل حال فإن وثائقها قليلة.

سنوسرت الثالث (١٨٨٧ - ١٨٥٠).

إنه من أعظم فراعنة مصر. وقد جاء الزمن ليجمّل من ذكراه التى أضحت مصدر العديد من الخرافات التى جمعها الإغريق. كان قائداً فاتحاً فزحف على فلسطين. وفى النوبة واصل إنجازات **امنمحات الأول وسنوسرت الأول** بعد أن أهملهما سلفاه - على أقل تقدير - ان لم يكونا قد تخليا عنها. ولكنه شن أربع حملات استطاع من خلالها أن يعيد الأوضاع إلى سابق عهدها. واهتم بحماية فتوحاته فشيد القلاع والحصون.

وانتهت الأسرة الثانية عشرة بسنوات حكم **الملك امنمحات الرابع وسوبك نفرورع** التى كانت تفتقر إلى أى أمجاد. ولا

نعرف عنهما شيئاً سوى ان اضمحلال الأسرة الحاكمة قد سار بخطى متسارعة فى عهدهما.

لم تسجل العجالة السريعة التى قدمناها لتاريخ ملوك الأسرة الثانية عشرة ماحققته هذه الأسرة من إشعاع فى الخارج وفى الداخل. وقد كان ازدهار مصر محصلة لنشاط ملوك هذه الأسرة بأسرهم، وإذا كان الأمر قد اقتضى من امنمحات الأول أن يغضّ الطرف بعض الشئ عن الروابط التى كانت تربط حكام الاقاليم بفرعون، فقد كان أجل هذه السياسة قصيراً، ففى عهد سنوسرت الثالث أصبحت سلطة الملك مطلقة من جديد، إلى حدّ إلغاء منصب «حاكم الإقليم»، وهكذا فبعد أن استعيدت سلطة الملك، أخذت الأسرة الملكية تستصلح أرض البلاد وفى مقدمتها الفيوم التى حولها حكام البلاد إلى واحة حقيقية، فشادوا على مقربة منها مقار إقامتهم الرسمية. كما كان هؤلاء الفراعنة بنّائين عظاماً وأضحت مصر مدينة لهم بمجموعة من التحصينات فى جنوب البلاد وشرقها، تحميها من أعدائها. وكان قصر امنمحات الثالث فى هوارة ذا شأن عظيم، فتولدت منه حكاية إغريقية خرافية – هى حكاية اللابيرانت (أو قصر التيه). أما فيما يتعلق بروابط مصر بالبلدان الأجنبية فيبدو أن علاقات مصر بسوريا وبيبلوس كانت وطيدة وودية. وقد تساءل البعض – دون إجحاف للحقيقة – عما إذا كانت فينيقيا لم تخضع فى عهد الأسرة الثانية عشرة

لإدارة حاكم مصرى، وانتظمت عملية استغلال سيناء وخرج المصريون فى حملات تجارية إلى بلاد پونت - وامتدت حدود مصر جنوبا لتصل إلى سمنة (٧٠ كم جنوبى وادى حلفا. راجع الخريطة رقم ١) - حيث أُقيمت منطقة محصنة حق التحصين - على قدر كبير من التشعب والتعقيد، فمنعت من الآن فصاعداً القبائل السودانية المشاغبة على الدوام من أن تتوغل داخل مصر. وباعتماد ملوك الأسرة الثانية عشرة على تحصينات الجندل الثانى المنيعة، استطاعوا أن يدفعوا بالحملات التجارية إلى قلب السودان. وقد احتفظت مدينة كرما جنوبى الجندل الثالث (راجع الخريطة رقم ١) ببصمات هذا النشاط عند المستوى القديم من مبانيها. أما الروابط مع جزيرة كريت التى يرى البعض أنها كانت أمرا محققاً، منذ هذا العصر، فمازالت معرفتنا بها قاصرة جداً، مما يحول دون أن نعرض لها. بيد أن هذه الروابط قد تأكد وجودها، على ماييدو، عن طريق فينيقيا.

وهكذا فإن مصر فى ظل الدولة الوسطى، كانت ذات تنظيم داخلى صارم، ويحميها فى الجنوب وفى الشمال الشرقى نظام تحصينات منيع حتى صارت لا تخشى شيئا من الخارج، ولكن هذا الأمن كان فى واقع الأمر عابراً، لاعتماده على قوة السلطة المركزية من جانب، وعلى ضعف أعداء مصر الآسيويين من جانب آخر.

ولكن هذين الشرطين اللازمين لأمن مصر تقوضا خلال عدة سنوات.

٤ - عصر الانتقال الثانى

١٧٨٥ - ١٥٨٠ ق . م

إن عصر الانتقال الثانى هو بالتأكيد أكثر عصور تاريخ مصر غموضاً، وأقل هذه العصور من حيث مانعرفه عنه. ولا يزال الجدل دائراً فى وقتنا الراهن حول مدته. فبعد أن ساد الاعتقاد بأن مدته كانت طويلة جداً (فإذا جمعنا الأرقام التى يقدمها لنا مانتون عن الأسرات ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦ و ١٧ التى تؤلف هذا العصر نصل إلى مجموع كلى يساوى ثلاثة وثمانين وخمسمائة وألف سنة!) فإن من المتفق عليه، بشكل عام، فى الوقت الراهن - أن هذا العصر لم يستمر لأكثر من مائتى سنة - بل إن أحدث هذه النظريات تقدم رقماً أقل بكثير. إن هذا العدد الهائل من الملوك الذين حكموا مصر خلال هذه البرهة الزمنية القصيرة نسبياً، يمكن تفسيره على أساس أن هذه المرحلة الانتقالية كانت تتكون من أسرات «متوازية»، فتحكم إحداها فى الشمال وغيرها فى مصر الوسطى وأخرى فى الجنوب. ومن المحتمل أن يقدم ذات يوم مؤرخو الشرق الأدنى الآسيوى بعض الإيضاحات حول التتابع الزمنى لهذا العصر. فالعديد من نقاط الإتصال كانت تربط مصر بآسيا آنذاك. وقد يكفينا أن نحدد بعض التواريخ على الجانب الآسيوى للوصول إلى نقاط استدلالية كافية بالنسبة لمصر.

وأيا كانت مدة عصر الانتقال الثانى، فمن الممكن أن نميز بين

مراحل ثلاث - ونبدؤها بمرحلة الأسرات، حيث ظل الملوك المصريون يحكمون بمفردهم. ثم مرحلة غزو واغتصاب أجنبي، وأخيراً مرحلة استعادة المصريين للبلاد. وبالطبع لم تفصل بين الأحداث في واقع الأمر مثل هذه الحدود القاطعة. فقد بدأ غزو الهكسوس في المرحلة التي لم تكن قد شهدت بعد تقويض النظام الملكي (بل إن البعض قد حدد بدايته منذ الأسرة الثانية عشرة). كما أن استعادة المصريين لبلادهم قد بدأ خلال عهد الغزاة الهكسوس.

الأسرتان ١٣ و ١٤ والملوك الوطنيون الأواخر

لا نعرف عن الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة سوى أسماء ملوكها الفراعنة. وفي البداية كانت هيبة الأسرة الثانية عشرة لاتزال قوية بتأثيرها إلى حدّ أن حمل الملوك أسماء امنمحات وسنوسرت رغم أنه من المستبعد أن يكونوا من سلالة هؤلاء الأفراد. ولا نعرف شيئا تقريباً عن مسار الاضمحلال الزاحف، وإن بدا أن حكم امنمحات - سوبك حوتب - وهو أول ملوك الأسرة الثالثة عشرة قد امتدّ إلى مجمل تراب مصر. وينسحب نفس الشيء على مايبدو على خلفه المباشر «سي عنخ تاوي - سخم كارع» ويصبح التحقق من ترتيب تعاقب الملوك بعد هذين الفرعونين من أكثر الأمور صعوبة، كما أننا لم نعد نعرف إلى أي مدى امتد سلطانهم. وكانت أعدادهم من الكثرة بحيث

تساءل البعض ما إذا كانوا «منتخبين» لأجل محدود فحسب. وكان النظام الملكى ميالاً على مايبدو إلى أن يحتمى بالجنوب، فاستقر به المقام فى منطقة طيبة. بيد أن كشفاً موفقاً بمدينة بيبلوس يشير إلى أن أحد الملوك المدعوين «نفرحوتپ» (راجع الجدول فى آخر الكتاب) كان لايزال يتمتع على مايبدو بقدر من النفوذ فى فينيقيا. ولا نعرف شيئا عن الانتقال من الأسرة الثالثة عشرة إلى الأسرة الرابعة عشرة، ويبدو أن الفوضى قد تفاقمت بسرعة بالغة، وعندئذ حسب رواية مانتون، بدأ غزو الهكسوس. ولكن الغزاة كانوا قد استقروا فى واقع الأمر فى شرق الدلتا منذ بداية الأسرة الثالثة عشرة، ومن الراجح أن حركة انتشار الهكسوس قد تزايدت فيما بين ملوك الأسرة الثالثة عشرة الأواخر وأوائل ملوك الأسرة الرابعة عشرة. وفى حقيقة الأمر كان «نحسى» (النوبى) – وهو آخر ملوك الأسرة الرابعة عشرة، يعتبر نفسه – منذ ذلك الوقت – تابعاً للهكسوس، ومن ثم فإن الغزو كان قد وصل إلى مرحلة متقدمة جداً.

الهكسوس

ورد اسم «الهكسوس» عند مانتون، وهو مايبدو تصحيف للاسم المصرى المركب «حقا خاسوت» الذى يعنى «زعيم البلدان الأجنبية»، ولم ينحدر جميع هؤلاء الأجانب من أصل عرقى واحد، ومع ذلك فقد كان أكثرهم من البدو الساميين على الأرجح. إن غزو الهكسوس مرتبط بحركة الهجرات الواسعة التى عمّت جميع أرجاء

آسيا. ويرتبط بالغزو الآرى الذى حدث فى الألف الثانى للشرق الأدنى، فاستقر الحيثيون فى الأناضول حوالى عام ١٩٢٥ ق.م والخاسيون فى بابل والحوريون فى ميتانى (راجع ملاحق الكتاب: الخريطة رقم ٢). وأثناء زحفها دفعت هذه الشعوب البدو الساميين المتواجدين أمامها فى اتجاه الغرب، فهذه الموجه السامية – وقد انضمت إليها عناصر أخرى ربما كانت هندو أوروبية – هى التى توغلت إلى داخل مصر.

وبعد أن غزا الهكسوس الدلتا، حيث قاموا بتحصين مدينة أواريس ليتخذوا منها عاصمة لهم، واصلوا زحفهم فى بداية الأمر حتى منف، ثم تجاوزوها. لقد تأسست أواريس عام ١٧٣٠ ق.م. تقريباً أى بعد انتهاء الأسرة الثانية عشرة بمائة وثمانية وخمسين سنة. ويحتمل أن ملوك الأسرة الثالثة عشرة قد نجحوا لفترة طويلة إلى حدٍّ ما فى وقف زحف الغزاة فى الدلتا، حتى إذا انتهت هذه الأسرة واصل الهكسوس تقدمهم. انقضت إذن فترة طويلة والدلتا خاضعة للسيطرة المشتركة لكل من الهكسوس والمصريين الذين احتفظوا فيها بقدر من السلطة السياسية، ولكننا لا نعرف حقيقة العلاقات القائمة بين العنصرين. ومن السهل علينا أن نتخيل البدو الغزاة وقد اكتفوا بسلب السكان المحليين وفرض الإتاوات عليهم، وانصرافهم عن شئون الإدارة، فى حين كانت الحكومة المحلية المصرية، من ناحيتها أضعف من أن تتصدى لهم، فقبلت الأمر

الواقع، ولكن كان من المحال أن تستمر هذه الأوضاع. لقد ظلت أعداد جديدة من الغزاة تفد دون انقطاع لتدعم الوافدين الأوائل، ثم بدأ الهكسوس تدريجيا ينظمون صفوفهم فاختاروا من بينهم زعيماً وحيداً، تولى فتح مصر بأسرها. وسواء أكانت الإدارة المصرية قد بلغت خلال ذلك العصر مستوى من الانحلال التام، أم كان الوافدون الجدد قد اكتسحوا الجيش المصرى بما لهم من قوة عسكرية تفوق قوة المصريين، بفضل اعتمادهم على تنظيم أو تسليح لم يكن المصريون قد توصلوا إليه بعد، يبقى أن انتصار الهكسوس كان خاطفاً على مايبدو. واحتفظ عنه المصريون بذكرى مخيفة، ربما بالغت منها الدعاية الملكية، ولكنهم ظلوا يذكرونه فيما بعد على الدوام.

إننا نفتقر إلى الوثائق التى تعيننا على عرض وقائع غزو ملوك الهكسوس لمصر واستقرارهم فوق مجمل ترابها. ومن بين أسماء الملوك الأجانب الستة التى وصلتنا عن طريق مانتون، لم نتحقق سوى من خمسة أسماء منها وجدت مدونة على الآثار المصرية،، هى: «**خيان**» و «**أبيبى الأول**» و «**أبيبى الثانى**» و «**عاسح رع**» و «**عاقن رع – أبيبى الثالث**». ومن الراجح أن مدة حكم هؤلاء الملوك كانت قرناً من الزمن وغطوا القسم الثانى من عصر الإنتقال الثانى – ومازال ترتيب تعاقبهم أمراً غير مؤكد، ماعدا بالنسبة **لأبيبى الثالث** الذى يعتبر يقيناً آخر

ملوك الهكسوس بالنظر إلى أنه كان فى سدة الحكم فى أواريس عندما طرده منها المصريون، ومن ناحية أخرى، فمن الراجح أن سيطرة الهكسوس على مجمل البلاد كانت قصيرة الأجل، فسرعان مافقدوا سيطرتهم على مصر العليا ليقتصر سلطانهم على الدلتا مما سهّل على المصريين تحرير بلادهم. ومن جانبهم فقد انتهز السودانيون النوبيون فرصة اضمحلال النظام الملكى المصرى وبعد ملوك الهكسوس الذين استقروا فى الدلتا، لإقامة مملكة مستقلة جنوبى الجندل الأول، وإلى هذا العصر ترجع على مايبدو مملكة كوش الموحدة الأولى التى اتخذت على مايحتمل من «كرما» عاصمة لها.

الأسرة السابعة عشرة وتحرير مصر

الأرجح أن الهكسوس عندما غزوا مصر اكتفوا فى معظم الأحوال بفرض دفع الجزية مع الإبقاء على الإدارة المصرية كما هى، لقد عادت مصر لتنقسم فى واقع الأمر إلى ثلاثة أقسام. ففى الدلتا ومصر الوسطى كان الهكسوس يحكمون حكماً مباشراً، أما مصر العليا، فكانت خاضعة لتبعية الأجنبى وإن ظلت مستقلة من الناحية العملية. وأخيراً كانت النوبة – بلاد كوش – قد استعادت حريتها ويحكمها سودانى. وفى أول الأمر، انقسمت مصر العليا – على مايبدو – إلى عدد من الممالك الصغيرة، وفرض عليها ملك طيبة نوعاً من الإشراف. وهكذا وقع مرة أخرى على

عاتق سادة طيبة مهمة توحيد البلاد، وحمل أوائل هؤلاء الملوك الطيبيين المعاصرين للهكسوس لقب «أنتف» أو «سوبك إم ساف»، ولا نعلم شيئا عن نشاطهم، عدا أنهم قاموا تدريجياً بتجميع أقاليم الجنوب من حولهم، وكان هؤلاء الملوك الطيبيون تابعين من الناحية النظرية للهكسوس المقيمين فى اواريس، ومن الراجح أن الحرب المعلنة ضد المحتلين الأجانب قد بدأها تاسع هؤلاء الملوك الصعايدة، وهو «سقنن رع - تاعا»، وقد تمّ العثور على مومياء هذا الملك ورأسها مثخنة بالجراح، مما حمل العلماء إلى التسليم بأن «سقنن رع» قد قتل فى ساحة الوغى، (بل ظن الطبيب الذى تولى فحص المومياء بأنه توصل إلى ظروف مصرع الملك)، ولكن حقيقة أن المصريين قد تمكنوا من حمل الجثمان وتحنيطه هى دليل على سيطرة الجيش المصرى على أرض المعركة. إنه افتراض لبق وبارع، ولكن يصعب التحقق منه، فمن الممكن أن يكون الملك قد لقى حتفه نتيجة اغتياله أو حرب أهلية وإن ظل أنصاره محتفظين بالسلطة، وأى كان الأمر، فقد استمرت الحرب فى عهد ابن «سقنن رع وخلفه «كامس» الذى نجح فى إلحاق الهزيمة بالهكسوس شمالى هرموبوليس (الأشمونين - حالياً) ثم واصل المعركة إلى الشمال، ويخبرنا نص اكتشف حديثاً فى الكرنك أن ملك الهكسوس قد سعى إلى التحالف مع ملك كوش ليرفع من قدراته الدفاعية فى مواجهة

كامى وأن المصريين شنوا غارة على أواريس، دون أن يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة.

كان آخر عمل على طريق التحرير من نصيب خليفة كامى وأخيه «أحمس» الذى سوف يصبح أيضاً مؤسس الأسرة الثامنة عشرة، عندما سينجح فى تحرير مجمل تراب مصر. واصل أحمس النضال حتى وقف مرة ثانية أمام أواريس فضرب من حولها الحصار واستولى عليها. ثم طارد الغزاة حتى جنوب فلسطين. ووضع هذا النصر نهاية لعصر الانتقال الثانى وبه تبدأ الدولة الحديثة أو عصر الإمبراطورية الطيبية الثانية.

إن مانعرفه عن تاريخ عصر الإنتقال الثانى ضحل للغاية بحيث لا نستطيع أن نقيِّم ماترتب عليه من نتائج بالنسبة لتاريخ مصر اللاحق. كانت الكارثة قاسية وشاملة فهزّت البلاد هزاً. فحتى تلك اللحظة كان البدو الأسيويون بالنسبة للمصريين جيراناً مزعجين ولكن دون أن يكونوا خطرين، وكان الهدف على مايبدو من إقامة «جدار الأمير» الذى شاده ملوك الأسرة الثانية عشرة عبر برزخ السويس، هو أن يحول الى الأبد دون قدوم البدو السلاّبين «فتشرب قطعانهم من ماء النيل». وجاء غزو الهكسوس ليثبت أن هذا الاحتياط كان غير كاف، وشرعت آسيا القوية تهدّد من الآن فصاعداً أبواب مصر. تلك هى الحقيقة الجوهرية التى ستحدد الآن مجمل تاريخ مصر.

٥ - الدولة الحديثة
(١٥٨٠ - ١٢٠٠ ق . م)

ينتهي تاريخ مصر الكلاسيكي مع الدولة الحديثة ومع نهاية هذه المرحلة لن تشهد مصر ثانية العظمة والقوة اللتين بلغتهما في ظل كل من الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة، على التوالي. وسيتحول تاريخها إلى عصر انحطاط ممتد أشبه بمرحلة انتقالية ثالثة، لن يشرق لها غد. ولكن قبل أن تدخل مصر مرحلة الاحتضار الطويلة هذه، عاشت عصراً مشرقاً جداً: عصر الدولة الحديثة. ويقف هذا العصر في العديد من قسماته على النقيض مما سبقه من عصور. وبدايةً، فإذ جنت منطقة طيبة ثمار مقاومتها العنيدة لمختلف ألوان العسف، فقد أضحت مركز مصر الإداري بعد أن ظل قائماً حتى عصر الانتقال الثاني في منف وفي مصر الوسطى. ويستجيب انتقال مقر الحكومة لضرورة جغرافية جديدة، فقد رُأي أن التوسع صوب الجنوب قد اكتمل بعد أن وصل إلى الجندل الرابع على مقربة من نپاتا (راجع الخريطة رقم ١) ومن الآن صارت مصر تمتد في واقع الأمر من خط عرض ١٧ وحتى البحر المتوسط بطول ٢٢٦٠كم على امتداد وادي النيل. وكان من الطبيعي لإحكام الإشراف على هذه الأراضي الشاسعة واستثمارها، أن تقام العاصمة الإدارية على مقربة من مركزها بقدر المستطاع. ومما زاد من ضرورة ذلك الأمر، أن مصر

أصبحت تستمد الآن جانبا كبيراً من مواردها من خلال امبراطوريتها الإفريقية: الذهب والمواد الأولية (كالخشب والجلود والعاج والصمغ والأحجار نصف الكريمة الخ...) والقطعان والبشر على وجه الخصوص لإمداد الجيش والشرطة. وكان من المستحيل على مصر التغلغل فى آسيا لولا ارتكازها على مؤخرتها الإفريقية. وإذا كانت الدولة الحديثة - بالمقارنة مع غيرها من عصور الوحدة - تختلف من حيث موقع عاصمتها، فإنها تتميز أيضا دون أدنى شك بسياستها الخارجية. فبينما كانت السياسة العسكرية للدولة الوسطى وللدولة القديمة، على وجه الخصوص، تتميز بأنها دفاعية (مع عدم استبعاد شن «الغارات» على العدو) فقد دشّنت الدولة الحديثة سياسة الفتوحات أو ماتسميه بلغة العصر - سياسة استعمارية. وكان هذا الموقف جديداً على مصر. كما سبق أن لاحظنا أن سياسة مصر التقليدية تجاه الآسيويين كانت قد تجاوزتها الأحداث. إن مصر التى قاست من غزو أجنبى استمرّ قرنين من الزمن، سوف تسعى إلى تجنب تكرار مثل هذه الكوارث، بالتوسع شرقاً قدر استطاعتها، وستعمل جاهدة على إيجاد أكبر مسافة ممكنة بينها وبين بدو آسيا المشاغبين، بعد أن عقدوا فيما بينهم شكلاً من أشكال الإتحاد الكنفدرالى، بتحريض من الميتانيين، وهم الغزاة الآريون الذين حطوا رحالهم فيما بين نهر العاصى وأعالى نهر الفرات. وسوف تترك هذه السياسة الجديدة

بصماتها العميقة في الحضارة المصرية. فرغم الغزوات والتوغلات الأجنبية ظلت مصر حتى هذا العصر تعيش على رصيدها الخاص. ولما توغلت مصر بعمق في الشرق فإنها أقامت علاقات حميمة مع كبرى حضارات الشرق الأدنى الآسيوى. وإن كانت قد بقيت على أصالتها وعلى مصريتها إلا أنها خلصت من كل ذلك وقد تبدلت تبدلاً كبيراً، في زيها وفي تسليحها، بل وفي حياتها اليومية ذاتها . فالذوق المصرى الذى ظل حتى الآن بالغ البساطة والاعتدال، بات يميل إلى بذخ وترف شرقيين إلى أقصى حدّ، نستشفهما عبر ما نشاهده من أبهة غير مرتقبة مع قدر من التثاقل أحياناً في مقبرة توت عنخ آمون. ولا داعى إلى الإفراط في الشكوى، فإن الفن في هذا العصر قد اكتسب سلاسة ورقة بقدر مافقد من قوة. إنه جانب آخر من جوانب العبقرية المصرية.

الأسرة الثامنة عشرة - ١٥٨٠ - ١٣٢٠ ق . م

كما سبق أن لاحظنا مراراً لا يوجد فاصل واضح بين الأسرتين السابعة عشرة والثامنة عشرة. فآخر ملوك الأسرة السابعة عشرة هو أيضاً في ذات الوقت أول فراعنة الأسرة الثامنة عشرة. إن مايبرر تغير الأسرة واسم الفرعون هو الإستيلاء على مدينة أوراريس الذى يضع حداً لاحتلال الهكسوس ويحدد بداية توحيد مصر من جديد.

أحمس ١٥٨٠ - ١٥٥٨ ق . م

وهو معروف بفضل نضاله ضد الهكسوس، على وجه

الخصوص، ويقدم لنا أحد النصوص صورة إجمالية عن وقائع هذا الصراع والاستيلاء على أواريس، ولا نعرف شيئا عن نشاطه فى الداخل، اللهم إلا أنه قد شيّد معابد جديدة للآلهة. وأخذ الدين يتسرب بالتدريج إلى التاريخ السياسى ففى مصر لا يصرع الملك أعداءه، بل الإله هو الذى يسوغ للملك أن يهزمهم، وكما سنلاحظ فيما بعد لم يكن الأمر مجرد صيغة بلاغية. لقد بدأت الحكومة تتطور شيئاً فشيئا نحو نظام ثيوقراطى إلى أن جاءت اللحظة التى أصبح فيها كبار كهنة آمون سادة البلاد الحقيقين، وبعد أن قام أحمس بتصفية الخطر الأسيوى فى أعقاب الاستيلاء على شاروهين فى فلسطين، استكمل نشاطه التوحيدى، فضم النوبة إلى مصر بعد أن كانت قد تحررت خلال عصر الانتقال الثانى وتحالفت على مايحتمل مع الهكسوس، وطوال عهده توالت حركات العصيان فى بلاد كوش واضطر ان يجهّز ثلاث حملات إليها، ويبدو أنه وصل حتى جزيرة صاى بين الجندلين الثانى والثالث، ومن الراجح أن أحمس قد قام مرة فى نهاية حكمه بحملة إلى فينيقيا .

واصل **امنحوتپ الأول** بن أحمس عمل أبيه، وحذا حذوه فشيد العديد من المعابد وشن حملة إلى النوبة ووطّد مركزه فى وادى حلفا ، ولا نعرف شيئا عن نشاطه فى آسيا، وان كان قد اضطر هو أيضاً أن يقود حملة إليها بالنظر إلى أن خلفه قد أعلن

عند اعتلائه العرش أن مملكة مصر تمتد حتى نهر الفرات، بيد أن أحمس لم يصل بالتأكيد إلى هذا المدى.

تحوتمس الأول – (١٥٣٠ – ١٥٢٠ ق . م)

لم يرزق امنحوتپ الأول من زوجته الشرعية سوى إناث، بيد أنه كان للإناث فى مصر، على مايبدو، حقوق على عرش أبيهم، دون أن يكون لهن الحق فى أن يحكمن بمفردهن. وقد تسلم أحد أبناء امنحوتپ غير الشرعيين السلطة وحمل اسم تحوتمس الأول، ولكن تدعيماً لحقه فى العرش أو ربما لاكتساب هذا الحق، تزوج من أخته غير الشقيقة «أحمس» إبنة امنحوتپ الأول، والملكة الشرعية. وإذ واصل تحوتمس الأول سياسة أسلافه المباشرين فى النوبة، فقد زحف جنوباً ليصل إلى الجندل الرابع. أما فى سوريا، فقد وصل حتى نهر الفرات، حيث أقام لوحة حدودية. ولكن ربما كان الغرض من ذلك دون ريب مجرد غارات سلب ونهب هدفها جمع الجزية.

تحوتمس الثانى – (١٥٢٠ – ١٥٠٥ ق . م)

ان مشكلة وراثة العرش التى كانت قد طرحت عند وفاة امنحوتپ الأول، طرحت نفسها من جديد، وفى ظروف مماثلة، عند وفاة تحوتمس الأول الذى لم يرزق من المواليد الشرعيين سوى بإناث. وفى هذه المرة أيضاً اعتلى عرش البلاد ابن غير شرعى هو تحوتمس الثانى، ولإضفاء الشرعية على الوضع، تزوج

تحوتمس الثانى من أخته غير الشقيقة: حتشبسوت، الإبنة الشرعية لتحوتمس الأول. وشهد حكم تحوتمس الثانى حركتى تمرد، الأولى فى بلاد كوش والأخرى فى سوريا. وقمع الملك كلتاهما. ولكن تكرار هذه الأحداث يلقى الضوء على هشاشة «فتوحات» الجيش المصرى. فيشن هذا الجيش إغاراته ليعود أدراجه كلما انتهت مهمته، فلا وجود لاحتلال حقيقى. وإذا حدث صدفة أن خلف المصريون وراءهم قوات متحصنة فى القلاع لمراقبة البلاد المحتلة فإن الهدف من هذه القلاع كان بالأحرى هو حراسة طريق من الطرق، أكثر منه حكم أهل هذه البلاد.

تحوتمس الثالث وحتشبسوت

إن تحوتمس الثانى، شأنه شأن أبيه، لم يترك عند وفاته من الأبناء الشرعيين سوى إناث وابن غير شرعى أنجبته منه إحدى المحظيات. وكنا ننتظر أن نرى هذا الابن وقد تربع فى سدة الحكم، أسوة بما جرى مع تحوتمس الأول وتحوتمس الثانى، وهو ماحدث بالفعل فى بادئ الأمر. فعند وفاة تحوتمس الثانى أُعلن ابنه غير الشرعى تحوتمس الثالث ملكاً. ولكنه كان لايزال فى مقتبل العمر، فتولت عمته حتشبسوت، زوجة تحوتمس الثانى، الوصاية على العرش. وشيئاً فشيئاً، تحولت هذه الوصاية إلى مُلك حقيقى فحكمت حتشبسوت بمفردها اثنين وعشرين سنة، دون أن ندرى أين قامت بإبعاد ابن أخيها. ومن المثير حقاً أن نعرف

موقف كهنة آمون خلال هذه الفترة بالنظر إلى أنهم كانو هم الذين أعلنوا تحوتمس الثالث ملكاً فى أعقاب وفاة تحوتمس الثانى، ولكننا نلاحظ أن كبير كهنة آمون كان فيما بعد من المخلصين للملكة حتشبسوت التى دعمت سلطتها فأعلنت نفسها إبنة الإله آمون ذاته. فمن الراجح إذن، أن كهنة هذا الإله قد لعبوا دوراً بارزاً فى خلافة العرش، سواء راوغتهم حتشبسوت أو أنهم اضطلعوا بهذا الدور من تلقاء أنفسهم.

كان حكم حتشبسوت على الصعيد العسكرى هادئاً، إما لعدم ثقة الملكة فى الجيش أو لعدم قدرتها على قيادته بنفسها. وحلت الحملات التجارية محل الحملات العسكرية وعلى رأسها تلك المتجهة إلى بلاد بونت. وتتألق هذه المرحلة بأبهة نضرة، على الصعيد الفنى. ويظل معبد حتشبسوت الجنائزى فى الدير البحرى الذى شيده أثيرها ومهندسها المعمارى سننموت آية من آيات الجسارة والاتزان.

تحوتمس الثالث - (١٥٠٤ - ١٤٥٠ ق.م)

استطاع أن يستعيد السلطة فى أعقاب وفاة حتشبسوت. وبدافع مما كان يحمله من ضغينة ضد عمته، أخذ يضطهدها بعد وفاتها - اضطهاداً حقيقياً. فأمر بقشط اسمها من على جميع الآثار واستبدله إما باسمه أو باسمى أبيه وجده. ولكن لحسن حظنا لم يقنع تحوتمس الثالث بدور المخرب بل واصل تقاليد عائلته فشيد العديد من العمائر، لاسيما فى طيبة.

ولكن يدين تحوتمس الثالث بأعظم أمجاده لنشاطه العسكرى، فكان بكل تأكيد من ألمع فراعنة مصر، فهو الفرعون الذى مد سلطة بلادة إلى أبعد مدى. فبعد أن ضمنت له السياسة النوبية لأسلافه الهدوء فى الجنوب، استطاع ان يتحول صوب الشرق الذى أضحى مصدر الخطر الرئيسى على الفراعنة. وبالفعل نلحظ فى آسيا أن الميتانين قد استغلوا، على مايبدو، تجميد حتشبسوت لكل نشاط لها، ليشجعوا على قيام تحالف معاد لمصر. كان هذا التحالف بزعامة ملك قادش وقام بتحصين آسيا مرة أخرى ضد المصريين، مما اضطر تحوتمس الثالث إلى القيام بسبع عشرة حملة للقضاء على هذا التحالف قضاء مبرماً وبسط الهيمنة المصرية من جديد على بلدان المشرق. حقيقة لم تكن جميع هذه الحملات على نفس القدر من الأهمية، إذ لم يكن بعضها أكثر من مجرد حملات تفقدية مسلحة، وأخرى غارات تأديبية محدودة. هل تصرف تحوتمس الثالث وفقاً لمخطط استراتيجى معد سلفاً؟ يبدو الأمر كذلك، وإن كان المرء معرضاً للوقوع ضحية وهم، كما أنه يستحيل تقييم الموقف تقييماً سليماً لافتقادنا إلى الوثائق. وبالفعل فإنه لم يقدم على الفور على مهاجمة الميتانى الذى كان عدوه الحقيقى والذى كان وراء حركات التمرد ضد مصر، فشرع يؤمن لنفسه أولاً قواعد راسخة، حتى قام فى نهاية المطاف بتوجيه ضربته القاضية.

وفى الحملة السنوية الأولى التى قادها تحوتمس الثالث، وقعت سوريا وفلسطين فى قبضته، ثم قضى ثلاث سنوات ينظّم أحوال هذين البلدين. وركزّ بعد ذلك اهتمامه على طرق مواصلاته. وخلال حملته الخامسة استولى على ميناءٍ فى فينقيا، فأصبح فى مقدوره، من الآن فصاعداً، أن يتجنب الطريق البرى الصحراوى الطويل. ومن ثم فقد ركب البحر عند القيام بحملته السادسة التى تمكنّ خلالها من الاستيلاء على قادش الواقعة على نهر العاصى (راجع الخريطة رقم ٢)، وهى المركز الرئيسى لأعدائه. ولكن القواعد التى أقامها لم تكن بعد على قدر كافٍ من الأمان، فثبت مدى ضعفها لما نشب تمرد فى فينيقيا. ولذا كرّس الحملة السابعة للإستيلاء على العديد من موانئ فينيقيا. وما أن فرغ من هذه الغزو حتى استشعر أنه اصبح من القوة ليشن هجوماً عظيماً. فكانت الحملة الثامنة. فرحل بحراً ونزل براً فى فينيقيا واخترق سوريا وبلغ نهر الفرات، فعبره على متن سفن شيدت بناء على أوامره فى بيبلوس وحملها معه عبر الصحراء. والتقى بالميتانيين فأوقع بهم الهزيمة وطاردهم وسط الجبال. وكان لهذا النصر وقع الصاعقة. فلم ير الميتانيون وحدهم أنه من الحكمة ان يدفعوا الجزية للمنتصر، بل أن جيرانهم أيضا من آشوريين وبابليين وحيثيين الذين لم يقاتلوا مصر كان لهم رأى مماثل.

وبفضل هذا الانتصار على الميثانى صار قسم كبير من الشرق

الأدنى الأسيوى خاضعاً للنفوذ المصرى. ولم تكن الحملات التسع التالية سوى حملات «للحفاظ» على المكاسب السابقة ، ويتضح فى حقيقة الأمر أن البلد المفتوح لا يتم احتلال جميع أرجائه ، ويكتفى فرعون بأن يصطحب معه إلى مصر أبناء الأمراء والزعماء المهزومين، وفى مصر يأمر بتنشئتهم قبل أن يعيدهم إلى بلدهم ممثلين للحضارة المصرية ، وكان هذا الأسلوب غير كافٍ إلى حد ما : وسوف نرى أنه رغم قوة موقف مصر فى آسيا إلا أن الأمر كان يحتاج على الدوام إلى غارات مسلحة جديدة تدعيماً له ، وفى عام ١٤٦٤ ، على أيام تحوتمس الثالث نفسه، عقد أمراء قادش وتونيب (مدينة سورية حصينة ، على مقربة من نهر العاصى) تحالفاً أخيراً ، ولكن قام المصريون بحملة جديدة استعاداً فى أعقابها مدينتى تونيب وقادش معاً، وستظل آسيا هادئة على الأقل حتى وفاة الملك التى حدثت عام ١٤٥٠ .

وقرب نهاية حكمة اغتنم تحوتمس الثالث فرصة قيام السودانيين بحركة تمرد محلية على ما يرجح ، ليعزز من وجوده حتى الجندل الرابع . ومن ثم «كانت مصر فى عام ١٤٥٠ تمتد من نباتا عند النيل الجنوبى وحتى نهر الفرات . وبلغت مصر أوج قوتها التى ما فتئت تضمحل فيما بعد بالتدريج وإن أمكن الحفاظ على هذه القوة لأكثر من قرن من الزمن .

أمنحوتب الثانى – ١٤٥٠ – ١٤٢٥ ق . م

أشرك تحوتمس الثالث، وهو على قيد الحياة، ابنه البكر فى

العرش، ليجنبه ماعانى منه هو نفسه من متاعب أيام حتشبسوت. لقد خلف إذن امنحوتپ الثانى والده دون عائق، وكان حكمه هادئاً فى الداخل، وفى الخارج اغتنم سكان سوريا وفلسطين فرصة وفاة تحوتمس الثالث ليشقوا عصا الطاعة، ولكن امنحوتپ قمع تمردهم وأمر باعدام الزعماء السوريين السبعة الذين أسرهم أثناء حملته، وعلى كل حال، فقد شرعت الأوضاع فى آسيا تتبدل، فالميتانيون الذين ظلت لهم الهيمنة حتى الآن، أخذوا يخشون الحيثيين (المقيمين فى الأناضول)، فدفعتهم خشيتهم هذه إلى التقرب من المصريين.

تحوتمس الرابع - ١٤٢٥ - ١٤٠٨ ق . م

لا يوجد أدنى شك فى أنه لم يكن ابن أمنحوتپ الثانى البكر، وإن كنا لا نعرف كيف وصل إلى سدة الحكم، ومع ذلك فقد جرت خلافة العرش دون صدام شأنه شأن سلفه، ساد الهدوء سنوات حكمه، وجهز حملتين، الأولى إلى السودان والثانية إلى آسيا، وكانت هذه الأخيرة تفقدية أكثر منها حملة بمعنى الكلمة. وبالفعل كانت الأوضاع فى آسيا قد تغيرت تغيراً ملحوظاً حتى بلغ خطر الحيثيين حداً دفع بالميتانيين، وهم أعداء المصريين القدامى، إلى السعى دون تردد فى طلب صداقة فرعون. فأبرم البلدان معاهدة مهرها تحوتمس الرابع بزواجة على مايبدو من أميرة ميتانية، فدان لها ابنه أمنحوتپ الثالث، على مايظن، بما يجرى فى عروقه من دم هندوأوروبى.

أمنحوتپ الثالث – ١٤٠٨ – ١٣٧٢ ق . م.

خلف أباه بشكل طبيعي، وكثيرا ماخرج في رحلات صيد في بداية عهده ولكن يبدو أنه لزم الهدوء في قصره فيما بعد. وتزوج من امرأة ذات أصول غامضة وربما كانت أجنبية. وعرج أمنحوتپ على السودان حتى وصل منطقة الكرو التي رأى البعض أنهم قد تحققوا من وجودها في المنطقة الممتدة جنوبي نپاتا والجندل الرابع مباشرة. ومن الراجح أنه لم يتدخل في آسيا حيث بقى التحالف مع الميتاني سارى المفعول. واختار ملك مصر زوجاته من الميتاني ومن بابل. ولكن تطور الأوضاع السياسية في آسيا، الذى بدأ في عهد جده، أخذ يتسارع باطراد واصطدم الحيثيون بالميتانيين الذين لم يتمكنوا من ردهم على أعقابهم إلا بمساعدة القوات المصرية، ونجم عن تدخل هذه القوات أن تحول الحيثيون ضد مصر ذاتها منذ أواخر حكم أمنحوتپ الثالث.

امنحوتپ الرابع – أخناتون (١٣٧٢ – ١٣٥٤)

شارك أمنحوتپ الرابع ابن امنحوتپ الثالث أباه في الحكم لمدة سنوات. وذاعت شهرته في تاريخ العالم، فعرف باسم «صاحب البدعة». وفي عهده تبوأ الدين مكان الصدارة. ولكن لا ينبغي أن نغفل أنه ماكان للدين أن ينتظر عهد أمنحوتپ الرابع ليؤثر في السياسة المصرية. كما أن جانبا من إصلاحه الديني قد ولد في أفكار صيغت في عهد امنحوتپ الثالث. لقد مارس كهنة آمون منذ

بداية الأسرة الثامنة عشرة دوراً نشطاً فى داخل الحكومة. ومن الممكن أن «ثورة» أمنحوتب الرابع الدينية كان لها أصول سياسية، دون أن يعنى ذلك أن أمنحوتب الرابع لم يكن صادقاً فى موقفه الدينى، وبرما كان صوفى النزعة، ولكننا نفتقر إلى المستندات الموثوق بها للفصل فى هذا الشق من المشكلة - لقد قام بعمل ثورى حقيقى، سعى من خلاله إلى القضاء على ديانة آمون فأغلق معابده وشتت كهنته. وإذ لم يقنع بهذه التدابير الأولى، فقد هجر طيبة وأقام حكومته فى تل العمارنة فى مصر الوسطى (راجع الخريطة رقم (١). وأخيرا غير اسمه امنحوتپ، المركب من إسم آمون (آمن - بالمصرية القديمة) إلى **إخناتون**، وأمر بمحو اسم آمون من جميع المدونات على العمائر، وبصفة خاصة من خراطيش من سبقوه من فراعين: أمنحوتب الأول والثانى والثالث. وتشهد الديانة الى فرضها على مصر على نزعة توحيدية واضحة، وإن لم يضطهد غير آمون من الآلهة، فالإله الأقل هو **آتون** - قرص الشمس. ولكن الجديد فى الأمر بالنسبة لمصر، أن عبادة الإله لم تستوجب وجود تماثيل له حيث تقام شعائر فى الهواء الطلق، وترفع مباشرة إلى الإله المتألق فى السماء. ورأى البعض أن وراء هذه الديانة تأثير أسيوى. بل ساد الظن أن الملك قد أخذ بها بعد تفكير وروية تشجيعاً لسياسة مصرية استعمارية فى آسيا، وهو أبعد مايكون عن الحقيقة. «وفى الواقع كان امنحوتپ الرابع - من

ناحية – لايبدو مهتماً كثيراً بالموقف الخارجي، كما لم تكن عبادة آتون من ناحية أخرى، من اختراعه هو شخصياً، إذ كانت عبادته معروفة، من أيام أسلافه، كما أن إسم آتون كمسمى لقرص الشمس هو أمر ثابت منذ متون الأهرام العتيقة وأخيراً كان للكهنة دورهم في ثورة اخناتون الدينية، على مايبدو، وبوجيز العبارة، فمن الراجح أن الجانب السياسي للثورة الآتونية، هو الذي حسم الأمور. وعلى كل حال، فقد كانت هذه الثورة قصيرة الأمد للغاية. وربما هُجرت عبادة آتون في أيام إخناتون ذاته. ويبدو في هذا الصدد أن نفرتيتي» قد لعبت دوراً بارزاً في الثورة التي قادها زوجها. ورغم أنها لم تساعد على إقامة العبادة الجديدة، إلا أنها ظلت على كل وفيه لها، لفترة أطول من زوجها شخصياً. ومن جراء مافعله أمنحوتب الرابع فقد أصاب الوهن الأسرة الحاكمة. ومع وفاته استعاد كهنة أمون نفوذهم على الوجه الأكمل. وهكذا خسر خلفاء أمنحوتب الرابع هيبتهم ومكانتهم. وحبذ كهنة أمون، بعد أن ساورتهم الريبة، أن تؤسس أسرة ملكية جديدة. وربما اغتنم التحالف الحيثي فرصة القلاقل التي نجمت عن الثورة الدينية لمواصله ما حققه من نجاح. واستعاد ملك قادش سهل سوريا الشمالي. واستولى ملك عامورو – وهو حليف آخر للحيثيين على الموانئ الفينقية التي تحتلها مصر. ولم يُقدم أمنحوتب الرابع على أي عمل مضاد، واكتفى بإرسال محقق إلى

فينقيا . وباللغرابة، فقد ثبّتَ ملك عامورو فى الممتلكات التى كان قد استولى عليها من مصر والتى سرعان ماشملت بيبلوس أيضاً. وباختصار، فقد اعترف امنحوتپ الرابع بالأمر الواقع، وتظاهر بالنظر إلى ملك عامورو على أنه تابع له. وثار البدو بدورهم فى فلسطين فاستولوا على مجدو وأورشليم. وعبثاً استنجد أهل البلاد بمصر فلم يمدهم أمنحوتپ الرابع بأية مساعدات. وأخيراً استسلم الميتانى حليف مصر تحت وطأة ضربات الحيثيين والآشوريين المتوالية والمتعاقبة. والآن وبعد أن أصبح للحيثيين اليد الطولى، فقد أرغموا ملك عامورو الذى كان يود أن يبقى مستقلاً فى الوضع الذى ثبته فيه امنحوتپ الرابع – أرغموه على أن يوقع معهم ميثاق تحالف. نجد إذن أن نفوذ الحيثيين قد حل فى كل مكان محل النفوذ المصرى، حتى لم يبق شئ يذكر من إنجازات تحوتمس الثالث العظيمة.

توت عنخ آتون – توت عنخ آمون

يحيط بخلافة العرش بعد أمنحوتپ الرابع الكثير من الغموض، فشأنه شأن ملوك الأسرة الأوائل، لم يخلف من الولد سوى إناث. ويبدو أنه أشرك معه، قرب نهاية حياته، «سمنخ كارع» – زوج ابنته البكر، وأن كلاهما قد انضما إلى عبادة آمون. أما الملكة «نفرتيتى» التى بقيت فى العمارنة فقد ظلت وفيه لعبادة الإله آتون. أما أمنحوتپ الرابع وسمنخ كارع» فقد وافتهما المنية فى وقت واحد

تقريبا . وآلت السلطة إلى زوج الإبنة الثانية لأمنحوتب الرابع، وهو «توت عنخ آتون» الذى كان لايزال صبياً فى مقتبل العمر، فأقام على مقربة من نفرتيتى فى تل العمازنة. بعد انقضاء ثلاث سنوات، وعلى أثر حادث لا نعرف عنه شيئاً - هجر «توت عنخ آتون» تل العمارنة، ورحل إلى طيبة حيث اختار لنفسه إسم «توت عنخ آمون». وإذ بقيت نفرتيتى بمفردها، فتآمرت على مايرجح ضده بالتعاون مع الحيثيين، ولكن ودون جدوى. وتوفى توت عنخ آمون وهو فى ريعان الشباب فى الثامنة عشرة من عمره، وبعد حكم دام تسع سنوات. وسعت زوجته «عنخ إس إن آمون» إلى الزواج من أحد أمراء الحيثيين، ولكنه اغتيل وهو فى طريقه إلى مصر.

منذ أواخر حكم امنحوتب الرابع، وتصريف شئون سياسة مصر الخارجية لا يخضع للملك بل تولاها قائد عسكرى هو «حورمحب» الذى سوف تهيمن شخصيته القوية على نهاية الأسرة الثامنة عشرة، ريثمايتولى السلطة بنفسه. وعمل «حور محب» منذ عهد امنحوتب الرابع على استئناف الصراع فى آسيا وجنوب فلسطين، حيث أخذ يدعم ما أمكن إنقاذه مما تبقى من مركز مصر.

كان «آى» من قدامى موظفى «أمنحوتب» الرابع واستمد حقه فى العرش بزواجة من أرملة «توت عنخ آمون» - ابنه أمنحوتب

الرابع، وكان عهد «آى» قصير الأمد ويكتنفه التشويش، ولم يدم سوى أربع سنوات، وظل تصريف شئون السياسة الخارجية من اختصاص «حورمحب» الذى لم يكن دون شك بعيداً عن ارتقاء «آى» العرش.

«حورمحب» هو آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة التى لا يرتبط بها إلا بفضل ماذكره مانتون والمؤرخون، فهو لا يدين فى حقيقة أمره بشئ لهذه الأسرة، فلا ينتسب إليها سواء بقرابة الدم أو بالمصاهرة، وربما كانت زوجته تمت إلى امنحوتب الرابع بصلة القرابة، ولكن لم يكن يحق لها المطالبة بتاج البلاد، وأن اختياره هو شخصياً ليصبح ملكاً إنما كان بوحى من آمون، وكان «حورمحب» ذاته ينحدر من عائلة من حكام الأقاليم وسرعان ما انخرط فى سلك الجندية وتخصص فيها على مايبدو، وكان قائد حاملى الأقواس فى عهد «توت عنخ آمون»، وكم كنا نود أن نتعرف بشكل أفضل على هذه الشخصية الغريبة، فبعد أن كان مؤيداً للملكين «توت عنخ آمون» و«آى»، شهد عهد «حورمحب» ذاته رد فعل مناوئ لعائلة أمنحوتب الرابع، فاغتصب آثار توت عنخ آمون وكشط اسم سلفه من عليها ليستبدله باسمه، وأخيراً فقد حدّد بداية حكمه بوفاة أمنحوتب الثالث، وكأن امنحوتب الرابع وسمنخ كارع وتوت عنخ آمون وآى لم يوجدوا قطّ، وإذا صحّ ما ورد فى نص مرسوم صادر فى عهده، فمن الراجح أنه أعاد للسلطة

المركزية وضعها وانصرف إلى درء مفاسد الموظفين. ومهما يكن من أمر فلا يبدو أنه واصل الحملات العسكرية بعد أن تولى الحكم. وحور محب هو المؤسس الحقيقي للأسرة التاسعة عشرة التي اختار لها - على ما يبدو - أول ملوكها.

الأسرة التاسعة عشرة وتجديد الهيمنة المصرية

إن الجيش كما نظّمة كبار الفاتحين من الأسرة الثامنة عشرة، بات يشكل من الآن فصاعداً قوة داخل الدولة المصرية، فلم يكن من المستغرب إذن أن نراه يقوم بدوره في الحياة السياسية. فقد استطاع حورمحب أن يغتصب السلطة بفضل دوره العسكري السابق، فلما أصبح طاعناً في السنّ، دون أن يرزق أطفالاً، على مايحتمل، فكر في قائد عسكري آخر، ليخلفه على العرش.

رمسيس الأول (١٣١٤ - ١٣١٢)

بالنظر إلى أن «حورمحب» كان قد اختاره بنفسه، فقد تبوأ رمسيس الأول سدّة الحكم دون عناء. وكانت تانيس - في الدلتا- (صان الحجر، حاليا) هي موطنه الأصلي. كان جندياً محترفاً، شأنه شأن والده من قبله. وسوف يحمل نفس الألقاب العسكرية التي تلقب بها حورمحب ذاته. ولا نعلم ما إذا كان مرتبطاً بصلة القرابة مع آخر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة.

كان رمسيس الأول طاعنا في السن عندما اعتلى العرش، لذا فقد اشرك على الفور ابنه سيتي الأول في العرش ليؤكد حق ذريته

فى السلطة الملكية. وشهد عهد رمسيس الأول الشروع فى تشييد بهو الأساطين العظيم بالكرنك فى طيبة بالإضافة إلى حملة إلى السودان بقيادة سيتى، وهو بلاشك الفرعون الذى سيدعى سيتى الأول.

سيتى الأول ١٣١٢ - ١٢٩٨

مثل أبيه وفى حياة «حورمحب» ذاته، كان سيتى قد أصبح قائد حَمَلَة الأقواس ووزيراً. وحيث أنه شارك أباه العرش فقد تسلم السلطة بشكل عادى. ومن علامات عهده البارزة العودة إلى سياسة الفتوحات فى الشرق. وبفضل سيتى الأول سوف تسترد مصر الشموخ والعظمة. صحيح أن رقعة الإمبراطورية المصرية لم تصل أبدا إلى ماوصلت إلية فى أيام تحوتمس الثالث، إلا أنها استعادت نفوذها المؤثر فى آسيا.

اغتنم بدو آسيا فرصة تغيير الفرعون ليتمردوا وليستولوا على المخافر المصرية القائمة على امتداد الطريق البرى من مصر إلى فلسطين. وكان سيتى قاسياً فى قمعه للعصيان، فاستعاد المخافر وتوغل داخل فلسطين. وبتشجيع من الحيثيين حاول أهل البلاد أن يتصدوا للمصريين. ولكن سيتى استطاع أن يهزم المتحالفين قبل أن يجدوا متسعاً من الوقت لالتقاء قواتهم. وبعد أن تسيّد على فلسطين تقدم فى سوريا حتى وصل الى مستوى مدينة صور. وهكذا استردت مصر مكانتها كقوة آسيوية.

وللأسف فإن الحدود الشرقية، جهة ليبيا، والتى ظلت هادئة منذ الدولة القديمة، كشفت فجأة عن خطر جسيم، إذ كانت القبائل الآرية قد انتشرت فى جميع أرجاء أوروبا الجنوبية، ثم عبرت البحر وحطّت الرحال فى ليبيا، وبدأت على الفور محاولاتها للتسلل إلى مصر، تمكن سيتى الأول أن يردعهم بقدر كبير من السهولة، ولكن ظل الخطر قائماً، وسوف يثير لخلفائه مشاكل خطيرة.. وبعد أن هدأت الأوضاع فى ليبيا، عاد سيتى مرة أخرى إلى آسيا ليواصل حملته، ومعلوماتنا عن هذه الحملة ضحلة للأسف، فنعرف أن سيتى قد استطاع أن يوقع الهزيمة بالحيثيين قرب قادش ولكنها لم تكن على مايظن معركة حاسمة، نظراً إلى أنه لم يتوصل إلى فتح سوريا من جديد.

رمسيس الثانى ١٢٩٨ – ١٢٣٥

خلف والده بشكل طبيعى، وإذ أخذنا بعدد الآثار التى تحمل اسمه لاعتبرناه أعظم البناة المصريين، ولكنه فى حقيقة الأمر، غالبا ماكان يغتصب أعمال الآخرين، فلم يتردد قط فى العمل على كشط أسماء أسلافه من على سطوح العمائر القديمة ليضع أسماءه مكانها، وإذا اضفنا ما اغتصبه من آثار إلى ماشيده شخصيا، وهى مبان يصعب غض النظر عنها، لأدركنا لماذا خلّف ذكرى حية فى تاريخ العالم، حتى تمّ أحياناً الخلط بينه وبين الشخصية الأسطورية التى عرفها الإغريق تحت اسم «سيزوستريس» Sésostris .

ونسج رمسيس الثانى على منوال والده، فقاد حملة إلى السودان، ومن الراجح أيضا (وإن لم يكن مؤكداً) أنه شن هجوما على الهند وأوروبيين القاطنين فى الغرب، وفى عام ١٢٩٤ عبر إلى فلسطين وسار حتى بلغ مستوى مدينة بيبلوس، وتصدى الحيثيون للجيش المصرى بتحالف ضم عشرين شعباً، ولكن لم يتمكن المصريون فى هذه المرة من أن يهزموا كلا من المتحالفين على انفراد، فاصطدموا بجيشهم الموحد، ووقعت الواقعة أمام مدينة قادش، إن معركة قادش معروفة معرفة جيدة بفضل أناشيد الثناء والمديح التى نظمت بأمر من الملك لتشيد بمسلكه الخاص، وأمكننا أن نستخلص منها خريطة بتحركات طلائع الجيش وقواته الضاربة الخ.، وكانت المعركة فى حقيقة الأمر، قاب قوسين من كارثة لا سابق لها بالنسبة للجيش المصرى، وجلّ ما استطاع رمسيس أن يفعله هو إعادة تجميع قواته، وربما أمكنه وقف تقدم العدو، ولم ينجح فى الاستيلاء على قادش أو تدمير جيش الحيثيين الذى واصل حملته عليه، وبمجرد أن عاد إلى مصر، دبر ضده تمرداً جديداً فى فلسطين، فعاد رمسيس أدراجه إلى فلسطين وفرض السلام على كنعان (فلسطين) كما نجح فى انتزاع مدينة تونيب من الحيثيين (راجع الخريطة رقم ٢).

عند هذا الحد، تطورت الأوضاع الخارجية فجأة، فوفد من آسيا لص ثالث، مستغلاً الصراع المصرى الحيثى، كان ملك آشور

قد استولى على الجانب الأكبر من دولة الميتانى القديمة، ثم استقر عند نهر الفرات، حيث أخذ يهدد فى آن واحد الممتلكات المصرية وإمبراطورية الحيثيين. وإذ أدرك المصريون والحيثييون الخطر، اتفقوا على الفور،، وابرموا معاهدة عام ١٢٧٨ ق.م، فكانت حلفاً حقيقياً للتعاون المتبادل. وتعهد الطرفان بموجبه أن يضعا حداً للحروب الدائرة بينهما وأن يساند كل منهما الآخر عند وقوع هجوم من جانب قوة ثالثة. وأخيراً اتفقا على تسليم اللاجئين السياسيين التابعين للطرف الآخر. وليدعم الوحدة الجديدة، تزوج رمسيس الثانى من أميرة حيثية. وعلى كل حال، فسرعان، مافقدت المعاهدة أهميتها بالنسبة لمصر، بالنظر إلى زحف الموجة الثانية من الغزو الهند وأوروبى فى آسيا الصغرى، فكان الحيثيون أول المتضررين منها. لقد استطاعوا وقف الزحف إلى حين، ولكن سرعان ماجرى اكتساحهم ليصبح من المستحيل عليهم تقديم أى عون لمصر.

مرنبتاح ١٢٣٥ - ١٢٢٤

يمثل عهد مرنبتاح بداية انحطاط مصر، لقد كان حكم رمسيس الثانى طويلا بشكل ملحوظ، وعندما وصل مرنبتاح - ابنه الثلاثون - إلى سدة الحكم كان هو شخصياً فى سن متقدمة إلى حدٍ ما. وظل فى استطاعته أن يحافظ على هيبة مصر ومكانتها. ولكن سوف يتقوض كل شئ من بعده. وكانت حملة ليبيا، دون جدال، من أبرز أحداث عهده، فقد لاحظنا توغل الهند وأوروبين فى ليبيا فى عهد سيتى الأول. فبعد أن تمكن زعيم قبلى

من توحيد العشائر الآرية التي حطت رحالها على أرضها، نجح في إخضاع الليبيين سكان البلاد الأصليين، ثم اتجه صوب مصر. توغل الجيش الهند وأوروبى في وادى النيل شمال غرب منف. وكان على مرنپتاح أن يخوض القتال على أرض مصرية وانتصر، وولّى الجيش الليبى أدباره في حالة من الفوضى، وأزاح الخطر الليبى مؤقتاً. وحسبما جاء في وثيقة مصرية، يظهر فيها إسم إسرائيل لأول مرة في التاريخ، يبدو أن مرنپتاح قاد حملة إلى آسيا. غير أنه لم تصلنا أية معلومات عن هذه الحملة التي لازالت محلّ جدال.

ربما كنا على قدر من التعسف عندما اعتبرنا أن نهاية عهد مرنبتاح أى منتصف الأسرة التاسعة عشرة، هى نهاية لتاريخ مصر الكلاسيكية. وفي الحقيقة، فبعد هذا الفرعون، سوف يتوارى بالتدريج كل ماصاغ عظمة مصر التى لا نظير لها. وبداية فقد فقدت مصر نهائياً ممتلكاتها الأسيوية. ثم إن الوحدة، التى كانت العماد الوحيد لإمبراطورية مصر الإفريقية، سوف تزول على نحو ماحدث خلال عصرى الانتقال الأول والثانى. وسوف تظهر فى الوجهين القبلي والبحرى ممالك تعادى بعضها البعض، ولكن ظهور الزعماء صانعى السلام قد أصبح له هذه المرة طابعاً مؤقتاً. وسوف تتحول مصر من فوضى الى فوضى لتسقط فريسة الإمبراطوريات المجاورة، آشور فى البداية، ثم الفرس، فالإغريق فى نهاية المطاف. والآن فلنتناول تاريخ هذا الانحطاط الطويل الممتد.

الفصل الثالث
عصر الانحطاط

أدى وصول الهند وأوروبيين بأعداد غفيرة إلى ليبيا وفى البحر المتوسط وفى آسيا، عند نهاية الألف الثانى (حوالى ١٢٠٠ ق.م)، إلى زعزعة توازن الدول. إن مصر من ناحية، ومابين النهرين من ناحية أخرى، كانتا - حتى وصول الهندوأوروبيين - تشكلان مركزين حضاريين شامخين ومستقلين فى الواقع، ويبعد كل منهما عن الآخر بما يكفى لتجنب أية احتكاكات. ولكن منذ بداية الألف الثانى، كانت موجه الهجرات الأولى قد غيرّت بالفعل من هذا الوضع الذى ظل قائما منذ الألف الخامس. إن تأسيس امبراطوريتين كبيرتين جديدتين فى الشرق الأدنى: فى الأناضول (الحيثيين) وفى أعالى الفرات (الأشوريين) قد أجبرتا مصر على الاحتماء وراء تحصينات أحدورية امتدت إلى فلسطين وسوريا. ولكن جاء اليوم الذى اتضح فيه أن حتى امتلاك هذه التحصينات أصبح غير كاف لحماية وادى النيل. ولأول مرة فى تاريخها، يقع هجوم بحرى على مصر وعلى السواحل المصرية بالتحديد. ومما لاشك فيه أن مصر قد نجحت فى تحطيم الأسطول المهاجم، فحصلت بذلك على مهلة لعدة سنوات تلتقط خلالها الأنفاس. بيد أنه لم يعد فى إمكانها أن تغيرّ التوزيع الجديد للقوى. فبعد أن

ظل البحر المتوسط حتى الآن منطقة لا حياة فيها، اضحى بدوره محور عبور هجرات وتحول إلى مركز حضارى لتنتهى عزلة مصر النسبية. لقد كان فى وسع مصر حتى هذه اللحظة أن تنطوى على ذاتها لتظل إفريقية ليس إلا. ولكن منذ الآن، وبمرور السنين، تناقصت قدرتها على ذلك. فمن خلال الدلتا، أصبحت مصر متوسطية، شاءت ذلك أم أبت. كان من المنتظر نتيجة تغيير واقع الحال فى مصر أن تتطور البلاد داخلياً، فنشهد تحرك مركز ثقل مصر السياسى كنتيجة لتحرك الحضارات نحو البحر المتوسط. ولكن كانت استطالة مصر أكثر مما ينبغى، بحيث لا تستطيع أن تحرك مركزها الإدارى دون أن تعرض نفسها للخطر. وانطلاقاً مما سبق وأكدناه، فإن إقامة عاصمة البلاد فى الدلتا، يكاد يقابله بالضرورة حدوث تمرد فى الجنوب. ولا ريب أن العناصر التى قادت مصر إلى الانحطاط، قد تمخضت عن حتمية اختيار أحد هذين الحلين. فحتى يمكن لمصر أن تراقب عالم المتوسط وان تحتمى منه، كان عليها أن تقيم مركز البلاد فى الوجه البحرى وتظل تتحكم فى جميع مواردها البشرية. ولكن إذا انتقل المركز الإدارى إلى الشمال أكثر مما ينبغى، استقل الوجه القبلى والنوبة إلى هذا الحد أو ذاك ليفقد النظام الملكى الفرعونى جل قوته. هذا السبب المتأصل المقوض للتوازن، والذى يصعب الإفلات منه، سيزداد خطورة بفعل حدثين ثانويين. كانت طيبة ومعها كهنة آمون

يتمتعون بمكانه بلغت حداً من السمو فى نظر المصريين حتى بقيت بالضرورة مركز جذب بالنسبة للشمال، الأمر الذى أعاق إنشاء عاصمة إدارية فى الدلتا . وأخيراً، فإن افتقار مصر إلى زعماء مرموقين، يكون فى وسعهم بفضل مالهم من مكانة شخصية ومهارة أن يحافظوا، ولو فى الظاهر، على وحدة هذا الجسد الكبير الذى فقد محور توازنه، قد عجلّ من انهيار مصر. لقد أصبحت بلاد الزعماء الذين حملوا اسم امنمحات وسنوسرت مجرد لقمة سائغة لكل طامع. لقد وجدت مصر نفسها حسب موقعها الجغرافى عند ملتقى الطرق، فقدرّ لها أن تهاجم على الدوام، ولكن لم تتضح محاذير هذا الموقع إلا بعد إعمار عالم المتوسط وتحضره ليصبح مركز إشعاع. لقد تحرك مركز حضارات العالم القديم فى اتجاه الشمال وتبين أن هذا التحرك كان نكبة على مصر. فلأول مرة فى التاريخ نشاهد مثل هذا التحرك ولن يكون الأخير. وإذا اكتفينا بالظواهر التاريخية التى مرت بالحضارة الغربية فنذكر منها كبرى فتوحات القرون الميلادية الأولى واكتشاف العالم الجديد وإعماره، وجميعها نماذج لهذه التحركات التى كانت تقوض فى كل مرة التوازن القديم للحضارات، فتقود بعضها إلى الانحطاط وتدفع غيرها إلى مركز الصدارة.

١ - نهاية الأسرة التاسعة عشرة (١٢٢٤ - ١٢٠٠ ق.م)

بعد نجاح مرنبتاح فى احتواء الليبيين الهند وأوروبيين فى الغرب، كان من المهم بمكان أن تنهج مصر سياسة عسكرية نشطة.

فالعدو لم يكن قد أبيد بالفعل عن بكرته، بل تفرق فحسب. وللأسف كان مرنپتاح آخر أسرته العظماء. كان خليفته **«أمون مس»** مغتصباً للعرش، ومنذ عهده عمّت القلاقل الداخلية. وخُلع «أمون مس» عن العرش من جانب المدعو **«مرنپتاح سى پتاح»** الذى أطاح به «سيتى» الثانى، بصفته الملك الشرعى دون شك واستطاع ابن «سيتى» الثانى وهو **«رمسيس سى پتاح»** أن يخلف أباه، ولكننا لا نعرف شيئا عن حكمه. وظلت الفوضى تتفاقم بعد وفاته. وأصبح رؤساء المقاطعات مستقلين من الناحية العملية، بل لم يكن هناك على مايبدو ملك لتصريف أمور الحكومة المركزية. بل ونجح سورى يدعى **«يارسو»** من فرض نفسه ملكا على مصر، الأمر الذى يكشف عن مدى اضطراب أحوال امبراطورية الفراعنة. وفى الخارج، شرع الهندوأوروبيون يزحفون صوب الجنوب والغرب، بينما استغل أقرانهم فى ليبيا انتشار الفوضى فى مصر ليعيدوا تنظيم صفوفهم.

٢ – الأسرة العشرون (١٢٠٠ – ١٠٨٥ ق . م)

تندد النصوص المصرية بزندقة وطغيان الغاصب السورى. لقد نجح المصرى **«ست نخت»** فى خلع «يارسو» عن العرش، سواء بالاعتماد على المقاومة الشعبية أو بتشجيع من كهنة آمون، وأسس الأسرة العشرين. وبالرغم مما أصاب البلاد من وهن كنتيجة لطول عصر الفوضى التى عاشتها مصر، فقد نجح فى أن يكون له

بعض الهيمنة، ولكن علينا ألا نخدع أنفسنا كثيراً. إنها الصحوة الأخيرة ليس إلا. فالانحطاط آت لا محالة. كان حكم «ست نخت» (١٢٠٠ - ١١٩٨) مؤسس الأسرة قصيراً جداً. وكان - وهو على قيد الحياة - قد أشرك ابنه في الحكم، ومن ثم استطاع هذا الإبن وهو رمسيس الثالث - أن يخلف أباه دون مشاكل، ليصبح عهده آخر أعظم عهود مصر. وعلى الصعيد الداخلي يبدو أن رمسيس الثالث قد أصلح الإدارة بل ومجمل نظام مصر الاجتماعي. وللأسف، فإننا مازلنا نعرف هذا الإصلاح معرفة سيئة. وكم كنا نود أن تتوفر لنا المعلومات حول توزيع السكان على مختلف الطبقات المتراتبة التي نشأت في ذلك العهد كما تكشف عنه بعض البرديات. ومن ناحية أخرى، فإذا حكمنا على ذلك استناداً إلى نموذج عصر الامبراطورية الرومانية المتأخر (٢٣٥ - ٤٧٦م) الذي شهد إصلاحات مماثلة، فإن بلورة هذه الوظائف الاجتماعية دليل انحطاط أكثر منها إعادة تنظيم مثمرة. ومهما يكن فإن رمسيس الثالث قد استطاع على الأقل أن يدعم النظم العسكرية وهو ما كانت مصر أحوج ماتكون إليه. وبالفعل فقد اختفى الحيثيون بعد أن أبادتهم «شعوب البحر» أي القبائل الهند وأوروبية الوافدة من أوروبا والتي وصلت في هذا الوقت عند حدود فلسطين وأخذت تزحف على مصر. وفي ليبيا، أخذ هندوأوروبيو الغرب يهددون من جديد وادي النيل بعد أن أعانوا

تنظيم صفوفهم، شن رمسيس الثالث حملته الأولى ونجح في وقف القبائل الآرية الزاحفة من ليبيا بعد أن استطاعت التوغل داخل مصر ذاتها، ومن هنا أخذت تهدد مدينة منف. وبعد أن حقق هذا النجاح الأول أو ربما في الوقت ذاته (إذ مازلنا لا نلم جيداً بالتتابع الزمني لهذه الحملات) اضطر فرعون أن يتصدى لموجه أخرى من الغزوات الهندوأوروبية القادمة في هذه المرة من الشرق والشمال والتي أخذت تهدد مصر براً وبحراً في آن واحد. ومعلوماتنا عن الحملة البرية شحيحة ويبدو أن الجيش المصري قد توصل إلى احتواء الهندوأوروبيين عند الحدود الفلسطينية السورية، أي على مسافة كافية بعيداً عن مصر. أما بحراً فتسرد علينا نقوش معبد مدينة هابو (بطيبة) وقائع انتصار مصر الذي كان حاسماً على مايظن. وعلى كل حال فقد تم تدمير أسطول الغزو «لشعوب البحر» أمام سواحل الدلتا، أو في الدلتا، ودون رجعة.

إن أول انتصار حققه رمسيس الثالث على الهندوأوروبيين في ليبيا، كان على مايبدو غير كافٍ فما إن مرّت ست سنوات على الغزوة الأولى، حتى التأم شمل القبائل من جديد تحت إمرة زعيم أوحد يدعى «كابر» الذي شرع يخضع باقي السكان الليبيين المحليين، وبفضله فرض الهندوأوروبيون يدهم الطولى على ليبيا. وبعد أن أكمل هذه العملية التمهيدية، دفع «كابر» بقبائله لتغزو

مصر، فاصطدمت هذه المرة أيضاً مع الجيش المصرى عند مشارف منف. وفى هذه المرة انتصرت مصر نصراً مبيناً: فوقع الملك «كاپر» وابنه فى الأسر. وبعد أن تمكنت الفوضى من القبائل الهندوأوروبية، لن تعود أبداً إلى غزو مصر بالقوة، ولكن لم تنفك مصر تشدهم إليها. ومنذ الآن، فبدلاً من أن تدخل وادى النيل كغزاة فسوف تتسلل إليه بالطرق السلمية، وفى الغالب كمرتزقة، بناء على طلب من زعماء الأسرات المحلية فى الأقاليم أو الفراعنة لسدّ النقص فى الرجال. وهكذا سوف ينجحون فى تكوين دولة داخل الدولة ويتوصلون إلى الاستيلاء على السلطة الملكية. ومن ذرية هؤلاء المحاربين المرتزقة سوف يبرز واحد منهم ذات يوم ليتربع على عرش مصر.

وبعد أن أنزل رمسيس الثالث الهزيمة «بشعوب البحر» حاول أن يعود إلى سياسة مصر التقليدية فى آسيا بل إنه نجح فى التوغل داخل سوريا. ولكنه. الأمر كان مجرد إغارة لم يكتب لها النجاح. أما الساحل الفلسطينى ذاته الذى تحكمت فيه القوات المصرية لآماد طويلة، فقد احتله الآن البلستيون وهم قبيلة هندوأوروبية. وأصبحت مصر لا تلعب قط أى دور فى المشرق ولن تلعبه أبداً.

وما إن توفى رمسيس الثالث - بل وربما وهو على قيد الحياة، أطبقت الفوضى على مصر من جديد. فقد حيكت مؤامرة ضد الملك العجوز، ومن الراجح أن المتآمرين قد حققوا على الأقل

جانباً من أهدافهم. وبالفعل فقد تولى خليفة رمسيس الثالث تقديمهم للمحاكمة وهو مايعنى أن هذا الأخير كان قد وافته المنية. ولا نعرف إن كان قد اغتيل ثم تولى ابنه ردع المؤامرة قبل أن يجد المتآمرون متسعاً من الوقت للاستيلاء على السلطة، أم أنه مات ميتة طبيعية فى نفس اللحظة التى تم فيها اكتشاف المؤامرة، ومن ثم تولى ابنه معاقبة المذنبين بعد أن ألقى القبض عليهم وهو على قيد الحياة. ومهما يكن من أمر، فقد تدهورت الأوضاع فى اتجاه مزيد من الانحطاط. ولا نعرف الكثير عن الملوك الثمانية الذين أعقبوا رمسيس الثالث (لقبوا جميعهم باسم رمسيس، وهم رمسيس الرابع والخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر)، اللهم إلا أن عهودهم قد عانت من القلاقل الداخلية والمجاعات. ومن علامات الساعة، أن دفنات الملوك ذاتها لم تسلم من عبث العابثين. جاء اللصوص ينهبون التوابيت الملكية واستولوا على الحلى، بينما وقف الملوك الجالسون على عرش البلاد عاجزين لا يملكون من وسيلة لحماية رفات أسلافهم سوى أن ينقلوها من مقابرهم لدفنها سراً فى خبايا جماعية. ولو تذكرنا مكانة الملك فى أعين المصريين فى ظل الدولة القديمة والدولة الوسطى بل وفى ظل الدولة الحديثة، عندما كان إلهاً بقدر ماكان ملكاً، لأدركنا مقدار مافقدته الملكية من هيبة، وبناء عليه من قوة. ويظهر ضعف الملكية فى حركات التمرد فى مصر الوسطى على

وجه الخصوص، ونظرا لوجود الليبيين في هذه المنطقة بأعداد غفيرة فمن غير المستعبد أنهم ظلوا بمنأى عنها، كما يظهر أخيراً في تزايد قوة كهنة آمون في طيبة. إن مانعرفه عن دور هؤلاء الكهنة هو من باب التخمين أكثر منه معرفة يقينية. وفي صحوة مباغتة من صحوات العزيمة خلع رمسيس الحادى عشر كبير كهنة آمون وأحجم لفترة من الوقت عن أن يعين من يخلفه. ولكن سرعان ماعين رمسيس الحادى عشر «حريحور» كبيراً لكهنة آمون، سواء أدرك أنه لا يستطيع أن يقود الحكم بمفرده أو نتيجة لما مارسه بقية الكهنة من ضغوط قوية عليه أو أخيراً لانه أراد، بدافع من قلة الحنكة، أن يحابى أحد المقربين إليه. ومن الراجح أن «حريحور» كان من العسكريين. فجاء هذا التعيين غير الموفق إيداناً بنهاية الأسرة. إذ نلاحظ أن «حريحور» قد انتحل شيئاً فشيئاً مختلف الصفات الملكية. ومما لا ريب فيه، أنه قد بدى في بداية الأمر بمظهر الموظف المخلص، وبفضل إنعامات الملك عليه، وبعد أن شغل منصب كبير كهنة آمون، أضاف إلى هذا المنصب الرفيع لقب نائب الملك في كوش الذى ساعده على مدّ نفوذه إلى السودان. ثم حمل لقب وزير الجنوب الذى أهله لحكم الوجه القبلي على وجه التحديد. وإن لم يستطع حريحور أن يصبح سيد مصر قاطبة، إلا أنه غدا سيد جنوب البلاد على الأقل، ومن المفترض على الأرجح أنه اعتمد في ذلك على مساندة كهنته. واختفى رمسيس الحادى

عشر دون أن نعرف تاريخ وفاته. وكانت مصر عند وفاته قد عادت وانقسمت عملياً إلى شطرين، ففى الشمال كان «سمندس» وزير الشمال المطلق السلطات، ومن الراجح أنه اكتسب حقوقاً على عرش البلاد عن طريق زوجته. أما فى الجنوب، فنرى أن «حريحور» وهو الوزير السابق للجنوب، كان قد انتحل الألقاب الملكية. وعلى كل حال، فإن السلطتان القائمتان فى الشمال والجنوب لم تناصبا بعضهما البعض العداء. بل يبو أن حريحور قد اعترف بتبعيته لسمندس ولو نظرياً على كل حال، لأنه باعتباره ملك الوجه القبلى، وبالأخص بصفته السيد الحقيقى لكهنة آمون، واهتمامه بتعيين ابنه «پى عنخى» رئيساً عليها، قد أصبح السيد المطلق لمنطقة طيبة وجنوب البلاد.

٣ - الأسرة الحادية والعشرون (١٠٨٥- ٩٥٠ ق . م)

حينما تسلم «حريحور» السلطة فى الجنوب، كان آنذاك طاعناً فى السن. ولو كان فى نيته أن يضمَّ الشمال إلى ملكه فإنه لم يجد أمامه متسعاً من الوقت لتنفيذ مشاريعه. وعند وفاته، كانت مصر موزعة بين سلطة فعلية فى الوجه القلبى، على رأسها «پى **عنخى**» بن حريحور، وبين ملك فى الشمال، هو بلا ريب، الملك الشرعى، ويدعى «سمندس» وتضافرت الظروف ليصبح «سمندس» مؤسس الأسرة الحادية والعشرين التى اتخذت من تانيس (صان الحجر - حاليا) فى شرق الدلتا، عاصمة لها. وفى حقيقة الأمر،

فقد توفى سمندس – شأنه شأن حريحور – دون أن يغير شيئاً فى الوضع القائم فى مصر، وأورث سلطتة لابنه «بسوسينس» الأول الذى لم يرزق أبناء من الذكور. أما ابنته «ماعت كارع» التى تملك حق وراثة العرش، حسب العادات المصرية، فقد زوجها من ابن «پى عنخى» الذى كان لايزال كبير كهنة آمون، ويستحوذ بالتالى على السلطة فى الوجه القبلى. ومن ثمّ ورث ابن پى عنخى السلطة فى الجنوب عن طريق أبيه والسلطة الملكية فى الشمال عن طريق زوجته، ولما تسلم السلطة تلقّب باسم پيى نجم» الأول، وبدا وكأن وحدة مصر قد صارت من جديد أمراً محققاً، بيد أن عوامل التجزئة كانت أقوى بكثير من أن تقاوم بمثل هذه السهولة. حقاً لقد حاول «پى نجم» الأول، وإ ظل يقيم بمقره فى الشمال، أن يحافظ على سيطرته على الجنوب فأسند إلى أبنائه منصب كبير كهنة آمون، ولكن يبدو أن التمرد قد انفجر فى طيبة فى أعقاب وفاة ابنه الأكبر، إذ عين «پى نجم» فى الحال ابنه الثانى على رأس كهنة طيبة، وكان يُدعى «من خپر رع»، واستولى هذا الأخير على السلطة لحسابه الخاص، فقضى بذلك قضاءً مبرماً على كل مخططات والده، وسرعان ما اتخذ «من خپر رع» كبير كهنة آمون لنفسه لقب ملك، وهكذا ورغم كل مابذله «پى نجم» من جهد، انقسمت مصر من جديد إلى شطرين على حساب البلاد بأسرها، نظرا لأن كبير كهنة آمون أصبح يفتقر إلى القوة المادية التى كانت تحت تصرفه فى ظل الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، فقد

تضاءلت ثروتهم لانحسار موارد الجزية الأجنبية التى كانت تغذى مخازنهم فى الماضى من جراء الحروب المتواصلة التى خاضها فراعنة مصر العظام، فاضطروا إلى الإعتماد على ما تغلّه أراضى المعابد من دخل، ومن الراجح أن هذا الدخل قد استخدم فى جانبه الأعظم لسدّ احتياجات الكهنة أنفسهم.

وبعد وفاة «بى نجم» ظلت الأسرة منقسمة من الناحية الفعلية، ففى تانيس وفى الشمال، كان فى سدة الحكم «**أمون إم أوبه**» أولاً، ثم خلفاؤه «**سى أمون**» و «**بسوسينس**» الثانى، فى حين خلف أبناء «من خبر رع» أباهم فى طيبة عند وفاته وحملوا نفس الأسماء التى حملها الملوك الذين حكموا فى الشمال، فنعرف فى الجنوب من يُدعى بسوسينس» الذى كان حكمه قصيراً جداً، وآخر يدعى بيى نجم» وكان معاصراً لـ «سى آمون»، وما نعرفه عن هذه الفترة قليل جداً . وكم كنا نود أن نوضح بصفة خاصة العلاقات التى كانت تربط الجنوب بالشمال، ولاشك أن الاكتشافات التى تمت على يدى ببير مونتيه P.Montet عام ١٩٤٠ ق . م فى تانيس، سوف تساعد على إلقاء الكثير من الضوء على هذه المشاكل. وتسيطر على نهاية الأسرة الحادية والعشرين حقيقة أنقسام مصر الكامن فى الواقع كإمكانية لا يمكن ملاحظتها على الصعيد الرسمى. إنه مجرد واقع حال أفرزته الظروف. إن ملوك تانيس هم حكام مصر الشرعيون، وخلفاء «من خبر رع» فى طيبة

– على عكس مافعل أبوهم – لن يحملوا الألقاب الملكية. ولم تكن امكانيته انقسام الشمال والجنوب الكامنة فى الواقع هى الصدع الوحيد فى البنيان السياسى. ففى هيراكليوبوليس (إهناسيا – حاليا) فى مصر الوسطى، استولت عائلة ذات أصول ليبية على السلطة المحلية. وازدادت أهميتها بالتدريج، وسوف تقوم هذه العائلة بتأسيس الأسرة الثانية والعشرين بعد أن تمكنت من إزاحة ملوك تانيس.

٤ – **الأسرة الثانية والعشرون** – (٩٥٠ – ٧٣٠ ق . م)

تنحدر هذه الأسرة من أصول ليبية وتشكل ما يشبه ديكتاتورية عسكرية. فقد بات المرتزقة الليبيون – **الماشواش** – يشكلون وحدهم الجيش، بعد أن تقلص فيه باطراد العنصر المصرى المحض وتمتع زعماؤهم بسلطات ازداد قدرها كلما ازدادت البلاد ضعفاً من جراء الانقسامات، وصاروا يمثلون القوى المسلحة فاستغلوا الوضع للاستيلاء على السلطة العليا. كان من المنتظر فى ظل حكومتهم أن تعود إلى البلاد وحدتها السياسية، كما هو الحال بوجه عام عندما تستولى أقلية عسكرية على السلطة. ولكن لم يحدث شئ من هذا القبيل. فكانت الأسرة الثانية والعشرين منقسمة وضعيفة شأنها فى ذلك شأن الأسرة الحادية والعشرين ويرجع ذلك إلى عدة أسباب. بادئ ذى بدء، كان المرتزقة الليبيون قد استقروا فى مصر، منذ الأسرة العشرين؛ وقد تمصروا على مرّ

القرون، وفقدوا وحدة سماتهم العرقية التى كانت تشكل جانباً من قوتهم بتكرار زواجهم من المصريات. ثم بالنظر إلى أنهم كانوا أقل تطوراً من المصريين، فقد تبنوا حضارة سادتهم وتخلوا عن تقاليدهم الخاصة، التى كان فى إمكانها أن تميِّزهم عن المصريين وتعزلهم عنهم، إذا صحّ القول، فتمكنهم من السيطرة عليهم بسهولة. إنهم مصريون من أصل أجنبى، وليسوا أجانب. وأخيراً كانت جذور اختلال التوازن بين الجنوب والشمال تمتد إلى أعماق سحيقة بحيث لا تستطيع سلطة مغتصبة، كما هو الحال بالنسبة للأسرة الثانية والعشرين - أن تعالج الأمر.

إن عائلة آل «شاشانق» التى ينتسب إليها ملوك هذه الأسرة الملكية هم خير مثال على عملية الدمج التى جرت لِّليبيين فى مصر. لقد استقروا فى هيراكليوپوليس (إهناسيا - حاليا) - وهى النموذج الأمثل لمقاطعة التخوم الليبية، ويبدو أن آل «شاشانق» - والإسم غير مصرى على كل حال - كانوا ينحدرون، على مايبدو، من أصول ليبية صرفة. ومن الملاحظ أنهم أصبحوا مصريين حتى قبل أن يستولوا على السلطة فى هيراكليوپوليس. وبعد أن كانوا فى الماضى زعماء عسكريين فحسب، أصبحوا كهنة الإله المحلى «حريشف»، وقد أرادوا بصفتهم هذه أن يدفنوا فى أبيدو س شأنهم شأن المصريين. وسرعان ما أشرق إشعاع العائلة وضرب فى الآفاق حتى وصل إلى بوباستس (تل بسطا - حالياً) فى شرق الدلتا. وعند وفاة «بوسينس» الثانى، حمل «شاشانق» الأول

الألقاب الملكية وليصبغ الشرعية على أسرته زوّج ابنة «أوسركون» من ابنة «بوسينس».

ومن الراجح من ناحية أخرى أن الدكتاتورية العسكرية قد أثارت القلاقل فى البلاد، ومع ذلك فإننا لم نتوصل إلى معرفة إلى أى حدّ امتدّ التمرد الذى اتخذ على مايبدو من منطقة طيبة على وجه التحديد نقطة ارتكاز ومن غير المستبعد انه قد حدث خلال هذه الفترة، أن اختار جانب من الكهنة أن ينفى نفسه إلى السودان نفياً طوعياً، وإن كنّا نفتقر إلى دليل قاطع.

كان لا مفر من أن يشد الشمال الملوك الليبيين شداً، بعد أن أصبح الآن مركز ثقل مصر الحقيقى، فهجروا منطقة هيراكليوبوليس، ليستقروا على مايبدو فى الدلتا. ومن هنا شن شاشانق الأول حملة على فلسطين واستولى على أورشليم وسلب معبدها ونهبه. ومن ثم أعاد إلى مصر بعض هيبتها فى آسيا، ولكنها كانت حملة تفتقر إلى نتائج حقيقية. وبالطبع لم يصل الأمر إلى غزو حقيقى لفلسطين، وكانت النتيجة العملية الوحيدة لهذه الحملة هى إمداد المعابد المصرية بكم هائل من المغانم.

إن خلافة شاشانق الأول على العرش هى من المسائل المعقدة جداً بسبب افتقارنا إلى الوثائق. ولم يغير استيلاء الليبيين على السلطة من انقسام مصر إلى شمال وجنوب كإمكانية كامنة فى الواقع. وإذ استعاد شاشانق الأول سياسة أسلافة فقد حاول أن

يصادر نفوذ كهنة آمون لما فيه مصلحته فعين على رأسهم أحد أبنائه. ومن ناحية أخرى فسوف يسعى خلفاؤه إلى تقليده، ولكن على نحو ماحدث لجهود ملوك الأسرة الحادية والعشرين فقد باءت جهودهم هم أيضا بالفشل، وأخذ الصبية الذين نصبوهم على رأس كهنة طيبة يسعون دوماً إلى تأسيس أسرات ملكية فى الجنوب موازية للفرع الرئيسى القائم فى الشمال. ولوضع حدً لهذا الاتجاه سعى الفراعنة إلى الحد من نفوذ كبار كهنة آمون فاستحدثوا لقباً دينياً جديداً هو لقب «زوجة الإله» أو «عابدة الإله آمون». وعابدة الإله هذه كانت دوماً من أميرات البيت المالك. ولكن كانت النتيجة ان استولت «عابدات الإله» على سلطة كبار الكهنة دون أن يصبحن أكثر إخلاصاً منهم تجاه السلطة المركزية. وهكذا ظلت مصر منقسمة إلى شطرين. ونلاحظ قرب نهاية الأسرة الثانية والعشرين، أن طيبة قد جاهرت مرتين بإعلان تمردها ضد ملوك الشمال، الأمر الذى يكشف عن نزعة استقلالية صاعدة فى أوساط طيبة فى علاقتها مع النظام الملكى.

٥ - الأسرات ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ (٨١٧ - ٦٥٦ ق . م)

فى عهد آخر ملوك الأسرة الثانية والعشرين : «شاشانق الثالث» و «پامى» و «شاشانق» الرابع، انتشرت الفوضى دون توقف، ونزعت مصر إلى مزيد من التجزئة، لاسيما فى الدلتا. فقد تأسست الأسرة الثالثة والعشرون قبل أن تنوى الأسرة الثالثة

والعشرون، وتزامن جزئياً وجود الأسرتين. ومن دراسة الأسماء التى اختارها فراعنة الأسرة الثالثة والعشرين: **«بدى باست» و «شاشانق» الخامس و «تكلوت» الثالث**، يبدو من الراجح انها كانت ترتبط بصلة القرابة مع الأسرة الثانية والعشرين. وكانت بوباستس عاصمة الأسرة الجديدة حيث استقرت عائلة آل شاشانق قبل أن تتسلم الأسرة الثانية والعشرون السلطة بفترة طويلة. وهكذا ازدادت مصر انقساماً على انقسام، فإلى جانب انشطارها إلى شمال وجنوب، تجزأت إلى شرق وغرب فى الدلتا. وبالتها كانت نهاية التجزئة. فإلى جانب الأسرتين المتوازيتين، ظهر على مايبدو العديد من زعماء الأسرات المحلية فى الشمال، إلى أن قامت الأسرة الرابعة والعشرون. وبالرغم من أن جميع هؤلاء الملوك لم يناصبوا دائماً بعضهم البعض العداء، فقد كانت تجزئة السلطة محفوفة بالمخاطر على مصر التى صارت عاجزة عن حشد جيش قوى، وفى نفس الوقت لم تستطع تأمين الأشغال اللازمة للاقتصاد العام التى لا غنى عنها من أجل ازدهار البلاد. وحوالى عام ٧٣٠ ق . م كان الموقف قد بلغ قدراً كبيراً من التعقيد والتشويش. ففى الدلتا كان يتقاسم السلطة فراعنة الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين، من جانب، واقتسمها من جانب آخر، زعماء الأسرات الذين اغتصبوا السلطة المحلية وأغلبهم من العسكريين الليبيين. أما فى مصر الوسطى فمن الاستحالة بمكان أن نميز بين مايخضع لفراعنة الأسرة الثانية

والعشرين وما يتبع فراعنة الأسرة الثالثة والعشرين، دون أن تحدث بينهم، مع ذلك، أعمال عدوانية. وفى الوجه القبلى، فإن كبير الكهنة وعابدة الإله أمون المرتبطان بصلة القرابة بالفراعنة المتربعين على عرش الشمال، قد أمسكا بزمام السلطة فى طيبة وحافظا على استقلالهما تجاه الحكومة المركزية. وفى السودان، يرجح البعض أن جماعات كهنة أمون التى هاجرت، على مايظن، فى مستهل الأسرة الثانية والعشرين قد شكلت فيما بينها إدارة مستقلة، كان مركزها الحضرى فى «نپاتا». ولكن الأقرب إلى الصواب مع ذلك أن العواهل الذين تزعموا هذه المملكة كانوا ببساطة سودانيين وإن شرعت فى الظهور حركة مزدوجة جنحت نحو المركزية.

حوالى عام ٧٥١ تسلم «**پى عنخى**» السلطة فى نپاتا، فى السودان. ولا يشير اسمه بالضرورة إلى أصول مصرية. بل ومن المعتقد فى الوقت الحاضر، أنه يتعين أن يُقرأ «**پيپى**». لمّا كانت اعداد المصريين فى النوبة محدودة على الدوام، فقد اندمجو مع السودانيين. فلما تسلّم «پيپى» مقاليد الحكم، كان حاكماً على شعب سودانى قحّ. ومن أسماء أجداده نستخلص أنه لا يدين، على مايبدو، بشئ لمصر. ولذلك غالباً ما يطلق على الأسرة التى أسسها الأسرة «الكوشية» (الأثيوبية)*. وسعى «پيپى - پى عنخى» إلى فتح مصر إنطلاقاً من الجنوب. وفى الدلتا، فى الطرف الآخر من

---

* أطلق المصريون على السودان إسم «كوش» فى حين أطلق عليه الإغريق «أثيوبيا».

Posener. Dictionnaire de la Civilisation Egyptienne, P108

[المترجم]

البلاد، شرع «تف نخت» - أمير سايس (صال الحجر - حاليا) يعيد توحيد البلاد من حوله. ويبدو أنه مال إلى أسلوب الإقناع بدلاً من الغزو العنيف. وفرض على عواهل الأسرات المحلية أن يقروا بسيادته، فثبتهم في المقابل في سلطاتهم بصفتهم من أتباعه. وبعد أن وحدّ «تف نخت» مصر السفلى على هذا النحو، توغل في مصر الوسطى ليصطدم فيها بـ «پيپى» الزاحف من الجنوب.

والرواية الوحيدة لصراع الشمال والجنوب وردتنا من خلال وثيقة واحدة تعرف اصطلاحاً بلوحة «پى عنخى» التى تعرض رؤية «جنوبية» للأحداث.

هذا المصدر على قدر كبير من التحيز. ويدّعى پيى - عنخى متفاخراً بأنه هزم «تف نخت» هزيمة منكرة وأنه احتل مصر بأسرها حتى تخوم الدلتا البحرية. وفى الواقع، فإذا صحّ أنه طرد «تف نخت» وأتباعة من مصر الوسطى وأنه استعاد منف، فمن المشكوك فيه فى المقابل أن يكون قد زحف إلى أبعد من ذلك. وفى الواقع، فحالما فرغ «پيپى - پى عنخى» من انتصاره المزعوم، لم يكتف بالعودة إلى عاصمته نپاتا فحسب، وهو مايبدو غريبا فى حد ذاته، بل إننا نحتفظ بالإضافة إلى ذلك بدليل يثبت أن «تف نخت» كان لايزال محتفظاً بزمام الأمور فى الدلتا بعد مرور بضع سنوات على الغزو الكوشى المزعوم. ومهما يكن من أمر، يعتبر «تف نخت» مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين التى لا تضم سوى

ملكين: «تف نخت» و «باك إن رنف»، («بكوريس» عند الإغريق)، وبسطت هذه الأسرة سيادتها على الشمال. بينما كان «بيبى – بى عنخى» يحكم الجنوب مع الأسرة الخامسة والعشرين. وربما امتد سلطانه حتى منف. فالأسرتان الرابعة والعشرون والخامسة والعشرون هما أسرتان متوازيتان، ولم تتحقق وحدة البلاد.

فى الشمال، خلف «باك إن رنف» والده «تف نخت». وكان يعدّ على مايبدو مشرعاً بارزاً ولكننا لا نعرف عنه إلا النذر القليل، وأنه كان وراء تمرد فى فلسطين ضد الأشوريين، وأنه دعم هذا التمرد بمفرزة من القوات المصرية التى هزمها على كل حال الجيش الأشورى، كما لقى هو شخصياً مصرعه عندما فتح الدلتا جيش «شباكا» الكوشى.

وفى الجنوب، من المؤكد أن «شباكا»، خليفة «بى عنخى» قد فرض سيادته على مصر حتى طيبة بل وحتى منف على مايحتمل. وفى طيبة أصبحت الآن عابدة الإله آمون من سلالة سودانية. وقد غادر «شباكا» على كل حال، مدينة نپاتا ليستقر فى طيبة. وانطلاقاً من هذه المدينة شرع يفتح مصر السفلى، وهى العملية التى كان «بى عنخى» قد تخلّى عنها. ويبدو أنه نجح فى مسعاه ولكن لم تصلنا أية تفاصيل عن هذا الغزو الذى لقى خلاله «باك إن رنف» مصرعه. وما إن انتهى «شباكا» من معاركه حتى استقر فى

الشمال، وخلافاً لـ «تف نخت» و«باك إن رنف» لم يسع إلى مناهضة آشور العداء، ومع اختفاء الأسرة الرابعة والعشرين حكمت الأسرة الخامسة والعشرون بمفردها وفرضت سيادتها على مصر ولو من الناحية الإسمية، إذ أن السلام على مايرجح لم يعمّ تماماً البلاد بأسرها.

خلف شباكا كل من «شبتاكا» ثم «**طهرقا**» على التوالى، وعاد كلاهما إلى الأخذ بسياسة نشطة فى آسيا، وشجعا حركات التمرد فى فلسطين ضد آشور، ولكن سياستهما لم تكن أكثر توفيقاً من سياسة «باك إن رنف»، وإنها لمعجزة حقاً أن نرى الجيش الأشورى، بعد أن هزم التحالف الفلسطينى، لا يستولى على أورشليم ولا يبيد الجيش المصرى (ومن الراجح أن وباء الطاعون قد أكره الأشوريين على الإنسحاب من المعركة).

وحتى يتمكن «طهرقا» من متابعة الأوضاع فى البحر المتوسط، اضطر إلى الإقامة فى مصر الوسطى على نحو مافعله أسلافه، ومن الراجح أنه اتخذ من تانيس (صان الحجر – حالياً) مقراً له، ومن ثم كان بعيداً جداً عن مصر العليا حتى يستطيع أن يحكمها حكماً فعّالاً، ولكنه سعى سعياً حثيثاً ليؤمن على الأقل ولاء الجنوب، وخلافاً للتقاليد الموروثة لم يسلّم كل السلطات لكهنة آمون، بل عهد بجانب منها إلى «حاكم للجنوب» هو «مونتو إم حات»، هكذا نلاحظ أن السلطة الروحية قد انفصلت، عن قصد، عن السلطة الدنيوية لأسباب سياسية.

٦ - الغزوات الأشورية

الغزوة الأولى (٦٧١ ق . م) - لم ينصلح حال «طهرقا» بعد مغامرته الفاشلة فى فلسطين، فمن مقره فى تانيس واصل تحريضه على حركات التمرد فى أشور، وعام ٦٧١، استقرّ رأى «أسرحدون» - ملك أشور - على مهاجمة مصر مباشرة. لقد تجنب الدلتا ، حيث كانت تتجمع القوات المصرية على مايظن، ليعبر سيناء، متجها صوب منف التى استولى عليها . ثم استدار صوب الدلتا فزحف عليها من الخلف وأخضعها . وتمكّن «طهرقا» فى بداية الأمر، من الاعتصام بطيبة، فلّما هدد «أسر حدون» المدينة، صعد «طهرقا» الوادى متجهاً ناحية الجنوب، فى حين سارع «مونتو إم حات» إلى الاعتراف بالسيادة الأشورية ليتجنب احتلال طيبة . وغادر «أسرحدون» مصر على جناح السرعة دون أن يخلف وراءه سوى بعض القوات. واستغل «طهرقا» هذا الرحيل ليحرض الحكام المحليين الذين كانوا قد أعلنوا ولاءهم عند الغزو ضد الأشوريين، واستعاد مدينة منف.

الغزوة الثانية (٦٦٦ ق . م) - عند وفاة «أسرحدون» استأنف ابنه «أشوربانيبال» المعارك ضد مصر، ولما تمضى ثلاث سنوات بالكاد على قيام «طهرقا» بإعادة فتح مصر . وسقطت منف من جديد عام ٦٦٦، وواصل الجيش الأشورى فى هذه المرة زحفه حتى طيبة فاستولى عليها . أما زعماء أسرات الدلتا الذين سبق لهم أن تمردوا على الأشوريين عام ٦٧١ فقد تم أسرهم ونقلوا إلى نينوى،

وتوفى «طهرقا» بعيد هزيمته تاركاً السلطة لإبن أخية «تانت آمون» الذى جرى تتويجه فى نپاتا. وسوف ينجح «تانت آمون» — شأنه شأن عمه — فى تحريض مصر ضد الغزاة الآسيويين، ولكن سوف يكون إعادة فتحه لمصر لفترة وجيزة فحسب على نحو ماحدث عام ٦٧١.

الغزوة الثالثة (٦٦٤)

هكذا طُرد الأشوريون من مصر للمرة الثانية، ومالبثوا أن عادوا إليها. فهزموا «تانت آمون» عام ٦٦٤ وردوه على أعقابه إلى صعيد مصر. وسقطت طيبة للمرة الثانية، وسلبت المدينة ونهبت هذه المرة. وبعد أن لجأت الأسرة الكوشية إلى السودان، انحسر نهائياً سلطانها عن مصر، وإن عاشت لعدة قرون فى منطقة نپاتا — مروى، حيث حكمت شعباً لا يمت بصلة لما هو مصرى. فاللغة لغة إفريقية بحته، بل والكتابة ذاتها تختلف عن الخط الهيروغليفى، وإن ظلت المؤثرات المصرية قوية جداً. وسوف تحافظ هذه الإمبراطورية على استقلالها حتى عام ٣٥٠ بعد الميلاد.

٧ — الأسرة السادسة والعشرون وطرد الأشوريين (٦٦٣ — ٥٢٥ ق . م)

أخذت أبعاد تطور الوضع السياسى العام وانتقال محور الحضارات الذى أشرنا إليه فى صدر هذا الفصل تتحدد أكثر فأكثر. إن الدور الذى قُدّر لسكان حوض البحر المتوسط أن

يضطلعوا به، فى هذا العالم الجديد، والذى كان قائما كإمكانية كامنة منذ الغزوة الأولى لشعوب البحر، بدأ يتضح الآن بجلاء. ولما كانت مصر عاجزة عن تحرير نفسها بمفردها من الأشوريين، فسوف تعتمد على الإغريق الذين استخدمتهم كمرتزقه. ونظراً لأن هذه المساندة لم تف بالغرض منها فى حمايتها من آسيا، فسوف تتقبل مصر دون اكتراث غزو الإسكندر لها. وهكذا غضت مصر الطرف عن استقلالها الماضى، ولكن قبل أن يصبح فقدان حريتها أمراً واقعاً، ستعيش من جديد مرحلة مجد وعظمة، بفضل فراعنة الأسرة السادسة والعشرين. بيد أنه علينا أن نؤكد بوضوح على حقيقة أن مصر، بعد أن حُرمت من مواردها الإفريقية، باتت منذ ذلك العصر لا تدين بقوتها إلى جيشها الخاص، بل إلى استخدام المرتزقة الأجانب. فهؤلاء فقط كان فى مقدورهم أن يحموا مصر من امبراطوريات آسيا القوية من ناحية، وأن يخضعوا رعايا فرعون ذاتهم، من ناحية أخرى.

«يسمتيك» الأول (٦٦٣ – ٦٠٩ ق.م) هو أول فراعنة الأسرة السادسة والعشرين، وأمير من سايس (صا الحجر – حاليا) فى الدلتا. وقد خلف والده «نكاو» خلافة طبيعية. إنه أحد أحفاد «تف نخت» الأبعدين الذى كان هو أيضا أميراً على سايس وأسس الأسرة الرابعة والعشرين، وبالتالى اكتسب يستميك الأول حق المطالبة بعرش البلاد. وقد اعتمد منذ أوائل حكمه على

المرتزقة الإغريق، فبفضلهم طرد الأشوريين من مصر ولاحقهم حتى فلسطين. ولم يحل عام ٦٥٣ إلا وكانت البلاد قد تحررت - ومن ثم، فمن الراجح أن الحرب قد دامت قرابة العشر سنوات. وفي ذات الوقت وبمساندة الإغريق أيضاً قضى على زعماء الأسرات المحلية الذين كانوا يقتسمون مصر السفلى. عندئذ استطاع أن يعيد تنظيم البلاد قاطبة. وفي مصر العليا، بقى «مونتو إم حات» حاكماً على طيبة، حيث ظلّ في منصبة هذا منذ عهد الملوك الكوشيين. وبعد مفاوضات، حمل «بسمتيك» عابدة الإله آمون التي مافتئت حتى الآن أميرة ذات أصول سودانية، على أن تتبنى ابنته هو - «نيت إقرت» (نيتوكريس عند الإغريق). وبعد أن ثبت نفوذة ودعمه، عين حاكمين جديدين، أحدهما في الجنوب في إدفو، والآخر في هيراكليوبوليس (إهناسيا - حالياً) في مصر الوسطى. وكانت محاولته هي المحاولة الأولى المتسعة لوضع حد لاستقلال الوجه القبلي الفوضوي حيال السلطة المركزية، فاستردت مصر وحدتها. ومن الراجح، أن الغزو الآشوري، عندما أحيا نموذج السلطة المركزية ومنافعها، قد ساهم في عودة وحدة مصر. ومع ذلك لا يوجد وجه للمقارنة بين هذه الوحدة وما كانت عليه في العصور المجيدة من تاريخ مصر. فالأجانب من المرتزقة الإغريق هم الذين وفروا لبسمتيك القوة للسيطرة على رعيته ذاتهم. كما أنه دان للإغريق بإعادة قوة مصر العسكرية إلى سابق عهدها

فى مواجهة الآسيويين، فقد أصبحوا يشكلون قوام جيشه. وأعيد تنظيم الأسطول المصرى على نسق مثيله الإغريقى، وتحوّل اقتصاد البلاد الداخلى ذاته بعد إقامة المستعمرات الإغريقية، ومن ثم لم تستطع مصر أن تكيّف نفسها مع ظروف الحياة الجديدة للعالم القديم إلا بعد أن تنكرت لتقاليدها الخاصة.

«نكاو» (٦٠٩ – ٥٦٤) هو إبن «بسمتك» الأول، خلف أباه دون مشاكل واعتمد مثل أبيه على الخارج – أعاد فتح قناة البحر الأحمر أو بدأ – على الأقل – أعمال إعادة حفرها التى كانت تستهدف ربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط، فكانت الصورة الأولى لقناة السويس فيما بعد. كما كلّف أيضا البحارة الفينقيين العاملين فى خدمته بالدوران حول إفريقيا.

بعد أن وطّد سلطته فى مصر، لم يقاوم «نكاو» إغراء العودة إلى سياسة مصر التقليدية حيال آسيا. ولم يدرك أن الزمن قد تغير وتبدل، ولم يعد فى يد مصر القوة الكافية لتواجه بها الإمبراطوريات الآسيوية الشديدة المركزية، كما أن أوضاع الشرق الأدنى كانت قد تغيرت من جديد، فبعد أن ظلت آشور تحتفظ حتى الآن باليد الطولى، فقدت هيمنتها لصالح فارس وبابل بعد أن تحالفتا واستغل «نكاو» الصراع الدائر بين الفرس والبابليين والأشوريين للتوغل فى آسيا على رأس جيشه، فهزم ملك يهوذا عند مجيدو، وأخضع فلسطين وسوريا، ثم واصل زحفه حتى

الفرات، ولما وصل عند هذه النقطة اصطدم بـ «نبوختنصر»، ابن ملك بابل، وهُزم الجيش المصرى عند قرقميش، ومن حسن حظ «نكاو» أن «نبوختنصر» استدعى إلى عاصمة بلاده إثر وفاة والده، فلم يتمكن من جنى ثمار نجاحه. وبعد أن تمكن «نكاو» من العودة إلى مصر دون عوائق، استفاد من القلاقل الداخلية فى بابل وأقام تحالفاً ضد «نبوختنصر» الذى أعاد السلام إلى الدول التابعة له، ثم قضى على هذا التحالف فى يسر واستعاد فلسطين. ومع قرب نهاية حكمه، يبدو أن «نكاو» قد صرف النظر عن القتال ضد بابل، فى شقة البرى على الأقل، إذ يبدو أن تشييد أسطول بمعونة الإغريق يشهد على أنه كان ينوى مواصلة القتال بحراً. ولم يمهه الزمن، فقد وافته المنية قبل أن يتمكن من تحقيق مشاريعه.

أما **«پسمتيك» الثانى** (٥٨٨ – ٥٩٤ ق . م) – خليفة «نكاو» فلا نعرف عنه سوى القليل جداً وأنه قاد حملة إلى السودان وصلت حتى الجندل الثانى، إن لم يكن حتى الجندل الرابع، وهو أمر مرجح، كما قام برحلة إلى فينيقيا . ولا يبدو أن احتلال السودان الذى تحقق، على كل حال، بمساندة وحدات إغريقية وأسيوية، كان طويل الأمد.

أما **«واح – إيب – رع» – «أپريس» عند الإغريق** – (٥٨٨ – ٥٦٨) فقد خلف «پسمتيك» الثانى واستأنف القتال ضد الفينيقيين وضرب الحصار حول مدينة صور دون جدوى على كل

حال، وحول عام ٥٧٠، منى بهزيمة منكرة فى أعقاب تدخله فى ليبيا فوضعت حداً لحمكه. وواقع الحال أن الليبيين قد استنجدوا به ليواجهوا الإغريق المقيمين فى قورينة. أثارت هذه المغامرة الإستياء، ولا ريب أن «أحمس»، القائد الذى كلفه «واح إبيب رع» بتهدئة التمرد قد استغل هذا الوضع ليتزعم العصيان ضد مليكه. وظل مآل الصراع بين «واح إيب رع» و«أحمس» غير واضح على مايبدو لفترة طويلة. ومن الراجح أنه قد مضى بعض الوقت وهما يتقاسمان البلاد، ثم كانت الغلبة لأحمس، فازاح «واح إيب رع» نهائياً.

«أحمس» الثانى – «أمازيس» عند الإغريق – (٥٦٨ – ٥٢٥). ورغم أن الشعور المعادى للأجانب قد ساعده دون شك عندما اغتصب السلطة، إلا أنه تحاشى تماماً أن يثير استياء الإغريق، الذيت كانوا يشكلون قوام جيشه كما كان الحال فى عهد غيره من ملوك هذه الأسرة. وعندما استأنف «نبوختنصر» القتال ضد مصر، اشتبك معه «أحمس» الثانى فى معركة كانت وبالاً عليه وإن لم تؤد إلى احتلال مصر، ويؤكد المؤرخون الإغريق أن «أحمس» الثانى قد استولى على جزيرة قبرص، ولكن لا توجد بين أيدينا وثائق مصرية تؤكد هذا الغزو. أما الفرس الذين لم يتوقفوا عن التوسع، فقد شكلوا مع نهاية حكمه، تهديداً على الشرق الأدنى بأسره. وليحمى نفسه تحالف «أحمس» الثانى مع «كريسوس» ملك

ليديا، كما تحالف مع أسبرطة وبابل. ولسوء حظة ينهار حلفاؤه الواحد تلو الآخر أمام الجيش الفارسي الذى يستولى على ليديا أولاً، ثم يحل الدور على بابل وبعدها يتجه صوب مصر. ولكن أحمس الثانى يتوفى، ويصطدم «قمبيز» بخليفته «بسمتيك» الثالث ويهزمه عند بلوزيوم (الفرما حاليا) وذلك عام ٥٢٥ ق . م.

إن الأسرة السادسة والعشرين التى وضعت هزيمة بلوزيوم نهاية لها، قد نجحت فى إعادة تشكيل مصراً موحدة مزدهرة. إن الإنجازات الداخلية التى حققها فراعنة هذه الأسرة جديرة بأن تُدرس عن كثب. فبفضل ما أجروه من تنقلات بين الموظفين، وهو ماينمّ عن رجاحة رأى وسداده، نجحوا فى إحكام قبضتهم على البلاد بأسرها، وعلى الفور استطاعت مصر أن تستغل ازدهارها المستعاد لتعيش نهضة فنية حقيقية، لقد كانت حقاً «تغريدة البجع»* لمصر العجوز.

٨ - الاحتلال الفارسى الأول (الأسرة السابعة والعشرون: ٥٢٥ - ٤٠٥ ق . م)

كان الجيش المصرى بعد هزيمته عند بلوزيوم، قد ارتد إلى منف، ولكنه أثبت عجزه عن مجرد الحيلولة دون سقوط المدينة. وفى بادئ الأمر، أبقى «قمبيز» على «پسمتيك» الثالث على رأس الحكومة. ولكن سرعان ما حاول الملك المصرى أن يدير انتفاضة ضد الغزاة، ولما فشل التمرد فُرض عليه الانتحار.

---

* يقال أن البجعة وهى تحتضر تأن من شدة الألم وكأنها تغرد. المترجم

تتكون الأسرة السابعة والعشرون من الملوك الفرس وأولهم «قمبيز» الذى أكمل فتح مصر وربما خفف من نظام السلب والنهب الذى فرضه الجيش الفارسى على البلاد. ثم جاء «داريوس» الذى واصل سياسة التقاليد المتواترة لملوك مصر الوطنيين، فأمر بتشييد معبد فى الخارجة ونظم استغلال مصر الاقتصادى (وانتهى من حفر قناة البحر الأحمر التى بدأها «نكاو»). ويبدو أن المصريين قد ضاقت صدورهم مما عانوه من نير الفرس، فقامت فى الدلتا، حوالى عام ٤٨٦، محاولة للتمرد، ووافت المنية «داريوس» قبل أن يتمكن من إخماد هذا التمرد، ولكن «إكركسيس» الذى خلفه قضى عليه بسهولة. ولم ييأس المصريون، على كل حال، واندفع تمرد جديد بزعامة كل من «إيناروس»، أيدسايس (صا الحجر حالياً)، وتلقى المتمردون الدعم من أسطول أثينى. وبفضل مساندة الإغريق، نجح المصريون فى دحر الجيش الفارسى الذى لجأ إلى منف. وكان مقدراً لانتصار المصريون أن يكون قصير العمر. فاستأنف الفرس القتال وهزموا المصريين، ولم يمضى ثمانية عشر شهراً على هزيمتهم المحلية.، ونفذ الحكم الإعدام فى «إيناروس» واضطر الأثينيون إلى الإنسحاب. ولكن نجح «أميرتايوس» فى المحافظة على مركزه فى الدلتا. ولم يتوصل «داريوس» الثانى، إلى إعادة الهدوء إلى نصابه إلا بعد أن اتخذ موقفاً مهادناً فى مصر.

٩ - الأسرات ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ - ونهاية استقلال مصر (٤٠٥ - ٣٤١ ق. م)

رغم النشاط التهادني للسترابيا (أي الحاكم) الفارسي في مصر، لم يتخلّ المصريون عن كفاحهم. وتزعم «أميرتايوس» التمرد الذي انفجر عام ٤١٠، وهو ابن زعيم تمرد عام ٤٦٠ أو حفيده، كما أنه سُمي سلفه. و «أميرتايوس» الجديد هو أمير سايس (صا الحجر - حالياً)، كما أنه سليل فراعنة الأسرة السادسة والعشرين، وورث عنهم حقوقاً لا يستهان بها في وراثة العرش. ولا نعرف شيئاً عن تفاصيل المعارك التي دارت بين «أميرتايوس» و الفرس، اللهم إلاّ أن مصر كانت قد استردت حريتها عام ٤٠٤ بعد كفاح دام ست سنوات.

لا تضم الأسرة الثامنة والعشرون التي أسسها «أميرتايوس» سوى فرعون واحد: هو مؤسسها. وحرّي بنا أن نقول أننا لا نعرف عنه شيئاً عدا أنه بسط سيادته على مصر بأسرها بعد أن قام بتحريرها. ويبدو في حقيقة الأمر أن الغزوات الأجنبية كان لها الفضل على الأقل في وضع حد للفوضى التي كانت تقسّم مصر.

بعد الأسرة الثامنة والعشرين خلفتها **الأسرة التاسعة والعشرون** التي كانت أسعد حظاً منها، لأنها تضم أربعة ملوك. و«نايف - عاو - رود» («نفرتيس الأول» عند الإغريق) - هو

مؤسس الأسرة - وينحدر أصلاً من «منديس» في شرق الدلتا . وشأنه شأن أسلافه من ملوك الأسرة السادسة والعشرين، فإنه أسّس سلطانه على صداقته مع الإغريق وعقد ميثاقاً مع أسبرطه. كما أننا لا نعرف سوى القليل عن حكمة الذى دام لفترة قصيرة جداً. وعاد «هكر» («اكوريس عند الإغريق») إلى الأخذ بسياسة نشطة في آسيا وشارك في تحالف ضد الفرس. وعلى كل حال فقد مُنى هذا التحالف بالهزيمة. ولكن «هكر»، استطاع بفضل اعتماده على المرتزقة الإغريق أن يتفادى غزو مصر من جديد. وخلفه «پساموت» ثم «نايف - عاد - رود» الثانى («نفرتيس» الثانى، عند الإغريق). ولا نعرف عنهما سوى أن حركات التمرد الداخلية قد تفجرت فى عهدهما. وأن أمير «سبنيتوس» (سمنود حاليا) قد خلع ثانيهما عن العرش ليؤسس الأسرة الثلاثين.

الأسرة الثلاثون هي آخر الأسرات الوطنية المستقلة. ومن الراجح أن مؤسسها «نخت - نب - إن» («نختنبو» الأول، عند الإغريق): ٣٧٨ - ٣٦٠، قد تسلم السلطة بمساندة كهنة «سايس» (صا الحجر، حاليا). ومن الراجح، وخلافا لسياسة أسلافه المباشرين، أن يكون قد استغنى عن مساعدة الإغريق على الأقل، في بداية حكمه. وبفضل تضافر ظروف موفقة وأخطاء أعدائه، فقد استطاع أن يحول دون عودة الفرس إلى احتلال مصر، وإن

كان هؤلاء قد تمكنوا من الوصول إلى منطقة منف. و«نختنبو» الأول بنّاء عظيم، رمّم العديد من المعابد التى مازالت تشهد على ذوق سليم. وكان ابنه «تايوس» (٣٦١ - ٣٥٩) شريكا فى العرش فى حياة أبيه. وحسب عادة جعلها المصريون قانوناً لا مناص منه، عندما غدت قوتهم دون المستوى الذى يسمح لهم بالوقوف فى وجه آسيا، سعى «تايوس» إلى عقد الأحلاف مع الإغريق بعد أن كان والده قد تخلّى عنها. وبفضل «هوبليت» hoplites إسبرطة (وهم المشاة الإغريق المدججون بالسلاح)، وبفضل المرتزقة الأثينيين الذين ضَمِن مؤازرتهم له، عاد جيشه إلى ماكان عليه من قوة جبارة، فانتهز الفرصة ليشن حملة على آسيا. وللأسف، وبعد أن حقق انتصارات باهرة فى بداية الأمر، دبت الخلافات فى صفوف الجيش. ولكن بعد خيانة أخيه الذى كان قد تركه وراءه فى مصر، لم يجد «تايوس» وقد ضاقت به السبل، سوى أن يلوذ بالفرار إلى بلاط ملك الفرس، بينما استولى على السلطة مغتصب، هو ابن أخيه: «نختنبو » الثانى.

«نختنبو» الثانى (٣٥٩ - ٣٤١) - وما إن اعتلى نختنبو الثانى العرش حتى وجد نفسه طرفاً فى صراع ضد انتفاضة شعبية - انطلقت على مايبدو من منطقة منديس، وربما كانت بتحريض من أحد الأفراد سليل ملوك الأسرة التاسعة والعشرين. ولم يقض «نختنبو» على التمرد إلا بفضل مساندة الإغريق ونسج

على منوال عم والده فشيد أو أعاد تشييد العديد من المعابد. ولكن لم يكتب لمصر أن تنعم طويلاً بالسلام الذى أعاده نختنبو إلى ربوعها.

١٠ - فى ظل الاحتلال الفارسى الثانى (٣٤١ - ٣٣٢ ق . م)

فى آسيا، كان الملك الفارسى الجديد «ارتكسركسيس الثالث - أوخوس»، قد عقد العزم على غزو مصر من جديد، فجهز جيشاً جراراً، وشن هجومه منذ عام ٣٥١ ق . م. وكان «نختنبو» قد جنّد فى الجيش المصرى مرتزقة اسبرطيين وأثينيين تمكنوا فى بداية الأمر من دحر جيش «أرتكسركسيس - أوخوس»، الذى انكب مسرعاً يعدّ العُدة لغزوة جديدة ففى عام ٣٤١ ق . م، شن هجومة الجديد، براً وبحراً، بوسائل تعتبر مهولة بمقياس هذا العصر، فقد حشد «ارتكسركسيس» ثلاث مائة ألف مقاتل، وثلاثمائة سفينة حربية مجهزة بثلاثة صفوف من المجاديف، فى حين لم يتوفر لنختنبو سوى مائة ألف مقاتل. وفى هذه المرة، لم تكف شجاعة المرتزقة الإغريق لوقف الجيش الفارسى. وتم الاستيلاء على منف على وجه السرعة. اضطر «نختنبو» إلى الفرار إلى مصر العليا. حيث استطاع أن يحافظ على مواقعة لمدة سنتين. ولكن نجحت حملة فارسية ثانية فى استكمال احتلال مصر من أقصاها إلى أقصاها. ولا ندرى كيف كانت نهاية «نختنبو» آخر ملوك مصر المستقلين.

١١ - نهاية الاحتلال الفارسى الثانى وفتح الإسكندر

إن ما نعرفه عن الإحتلال الفارسى الثانى الذى كان قصير الأمد على كل حال (فلم يدم سوى تسع سنوات) هو أقل بكثير من الاحتلال الفارسى الأول، وقد عانى السكان والبلاد الكثير، على مايبدو، فى ظل إحتلال قوات «أرتكسركسيس - أخوس» وخلفائه : «أرسيس» و «داريوس» الثالث «كودومان». ومن ثم فلا عجب أن تتفجر الانتفاضات وأهمها انتفاضة «جنّاش»، أمير الدلتا الذى تلقب بالألقاب الملكية ونجح فى المحافظة على مواقعه فى منطقة منف لعدة سنوات، دون أن يتمكن مع ذلك من تحرير البلاد.

كان تحرير مصر من الفرس من نصيب الإغريق - ففى عام ٣٣٣ هزم الإسكندر «داريوس» الثالث «كودومان» عند «إسوس» ودخل الفاتح المغوار مصر عام ٣٣٢ ق . كمحرر لها واستجابة لطلب أحد المصريين، على مايبدو.

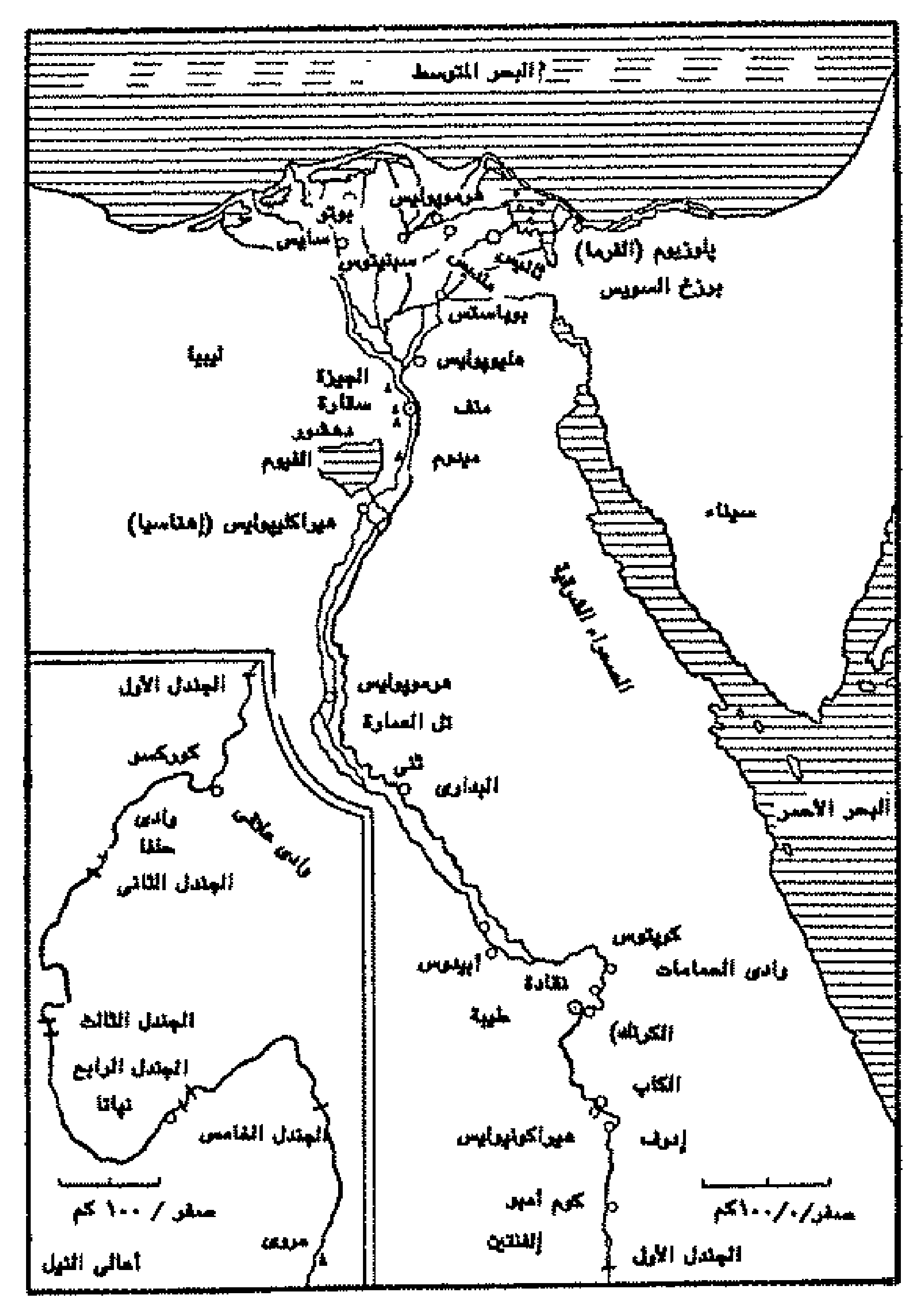
ينتهى تاريخ مصر، بمعنى الكلمة، مع الاحتلال المقدونى، وسوف يتولى ملوك إغريق ثم رومان توجيه أقدار مصر، ولن يحكم مصر، من الآن فصاعداً، فرعون من أبنائها . إن فتح الإسكندر لمصر لم يكن صدفة عرضية، بل حدثا لا مناص منه، شأنه شأن غزو الرومان، فيما بعد، نتيجة لتوازن القوى المتواجهة. فمصر هى الآن، جزء لا يتجزأ من عالم البحر المتوسط الذى لم يكن فى وسعه

ولا فى مراده أن يتركها وشأنها. كانت أقوى وربما أكثر شباباً أيضاً، ومن المرجح أنها كانت ستستطيع المحافظة على استقلالها بالارتكاز على أراضيها الإفريقية، ولكن كما رأينا، عجزت الأسرات الوطنية الأخيرة أن تبعث الحياة فى قوة مصر التليدة، ولم تنجح فى إطالة أيامها بعض الشئ، فى مواجهة إمبراطوريات آسيا الشاسعة، إلا بالاعتماد على القوات الإغريقية. وهو ما يفسر جزئياً، الأسباب التى دفعت مصر إلى تقبل احتلال الإسكندر عن طيب خاطر. وفى منطقة طيبة بقى شئ من روح الاستقلال التليد صامداً حول المركز الدينى الذى نشأ حول معبد آمون. وعلى كل حال، فمن هنا انطلقت حركات التمرد النادرة التى قامت ضد الحكام الأجانب. ولكن ظلت هذه الحركات دون أثر يذكر، فقد ماتت الحضارة المصرية وإن ظلت تحيا فى المعابد على امتداد أكثر من ثمانية قرون، حتى تم إغلاقها فى عهد تيودوسيوس، قرب نهاية القرن الرابع الميلادى (مرسوم عام٣٩١). إن العديد من هذه المعابد، رممها أو شيدها، فى واقع الأمر ملوك البطالمة أو الأباطرة الرومان، فبقيت مراكز الثقافة المصرية، والنصوص التى تغطى جدرانها، تكوّن ذخيرة فريدة فى بابها لدراسة ديانة الفراعنة.

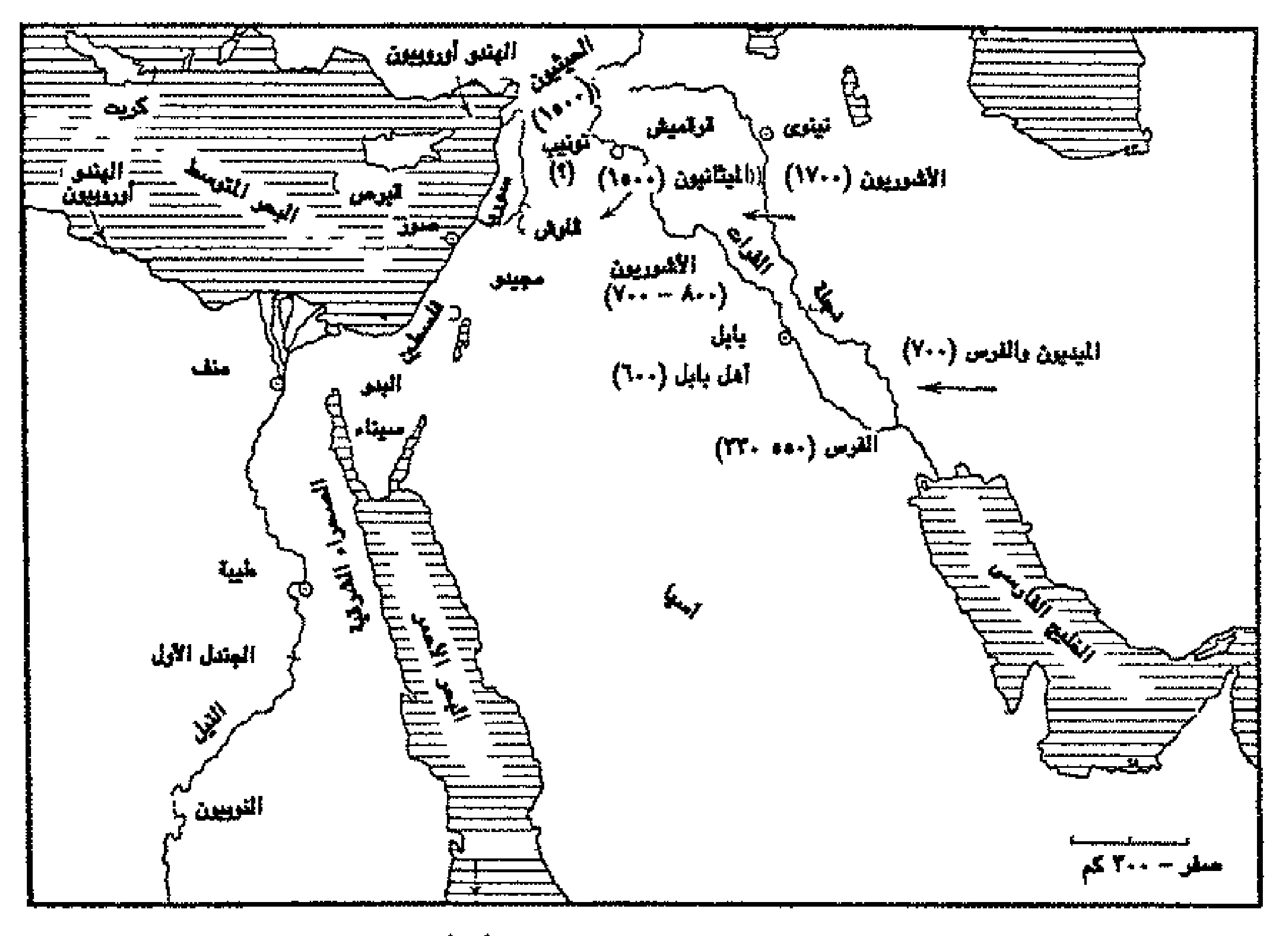
الخاتمـــة

ألقينا نظرة عابرة على أبرز أحداث تاريخ مصر، وبعد مرحلة إعداد طويلة، مازال يكتنفها الغموض فى العديد من جوانبها، شاهدنا بزوغ وازدهار حضارة فريدة فى بابها . وبعد مرحلة الاكتمال هذه لمسنا كيف دمّرت الفوضى، شيئا فشيئاً، الترابط الداخلى للإمبراطورية المصرية الذى شكلّ قوة مصر كلها . وسعينا بحثاً عن أسباب هذه الاضمحلال الممتد، فوجدنا أن بعضها ناجم عن تضاريس البلاد الجغرافية، وبعضها الآخر عن التطور التاريخى للحضارات التى أحاطت بمصر. وربما أضيفت إلى هذه الأسباب المادية الخالصة، أسباب أخرى أكثر عمقاً ولكنها تخفى على جهود التفكير المنهجى. إن مشكلة اندثار الحضارات غامضة فى العديد من جوانبها غموض موت الأفراد. لقد قضت مصر على غزوتى الهكسوس والأشوريين، ونجحت، بعد عناء كبير، فى واقع الأمر، وبمساعدة الإغريق، فى التخلص من الفرس. فمن كان يصدق، أنه كان يكفى أن يظهر الإسكندر فى مصر، حتى تصبح إغريقية؟ ويبدو أن فتور العزيمة قد اعترى المصريين. وتلح علينا قصائد تخلصت من كل الأوهام وتغنّى بها المصريون فى ولائمهم: «الأبدان زائلة منذ الأزل وتحل محلها أجيال جديدة. الشمس تشرق صباحاً وتختفى فى الغرب، ويتكاثر البشر والنساء يحملن، والرئتان تستنشقان الهواء بوفرة. وتمضى أحاديث حكماء الزمن

الغابر. ماذا حلّ بديارهم؟ لقد تهدمت الجدران واختفت منازلهم،
وكأنهم لم يوجدوا قط. لا أحد يعود حيث ذهبوا ليخبرنا عن
أحوالهم.. افعل في الدنيا مايحلو لك حتى تدنو ساعتك الأخيرة،
فإله الموت لا يسمع النواح ولا يخلص العويل أحداً من العالم
الآخر. اقض يومك في مرح، أجل، لا يصطحب أحد معه ثرواته.
أجل، إن الذين يرحلون إلى هناك، ما من أحد منهم استطاع قط
أن يعود..»



الخريطة رقم ١ : مصر



الخريطة رقم ٢ : مصر وجيرانها

جدول التتابع الزمنى لملوك مصر

Drioton - Vandier, L'Egypte (Coll.)

العصر ماقبل الثيتى والثينى

(٣١٠٠-٢٧٨٠)

الملك العقرب

الأسرة الأولى

نعرمر (مينا)

عحا

چر

واچى

دن – واديمو

عچ إيب

سمرخت

قا

الأسرة الثانية

حوتپ سخموى

نب رع

نى نتر (نتريمو)

ونج

سندج

سنج

پرإيب سن

خع سخم

خع سخموى

الدولة القديمة

(٢٧٨٠ – حوالى ٢٤٠٠ ق . م)

الأسرة الثالثة (٢٧٧٨ – ٢٧٢٣ ق.م)

نب كا

نترإيرخت (چسر)

سخم خت

سانخت (نب كا)

خع با

نفركا

حو (حونى)

الأسرة الرابعة (٢٧٢٣ – ٢٥٦٣ ق . م)

سنفرو

خوفو

چدفرع

جعفرع
منكاورع
شبسسكاف

الأسرة الخامسة (٢٥٦٣ - ٢٤٢٣ ق.م)

أوسركاف
ساحورع
نفر إيركارع - كاكاى
شبسسكارع
نفر إف رع
نى أوسر رع - إيتى
منكاوحور
جدكارع - إسيسى
أوناس

الأسرة السادسة (٢٤٢٣ - حوالى عام ٢٣٠٠ ق.م)

تيتى
أوسركارع
مرى رع - ببيى الأول
مرى رع - عنتى إم ساف
نفر كارع ببيى الثانى

عصر الانتقال الأول

(٢٤٠٠ – ٢٠٦٥ ق . م تقريبا)

نهاية الأسرة السادسة

بيبى الثانى (نهاية حكمه)

مرنرع الثانى

نيف إقرت (نيتوكريس)

الأسرة السابعة

أسرة افتراضية

الأسرة الثامنة (؟ – ٢٢٢٠ ق . م)

لا نعرف شيئاً تقريبا عن هذه الأسرة: يصعب توضيح قائمة ملوكها .

الأسرة التاسعة (هيراكليوبوليس : إهناسيا) (٢٢٢٢ – ٢١٣٠)

خيتى الأول (٢٢٢٢ – ٢١٨٠ ق . م)

عدد من الملوك غير المعروفين (٢١٨٠ – ٢١٣٠ ق.م)

الأسرة العاشرة

(هيراكليوبوليس)

نفر كارع (٢١٣٠ – ٢١٢٠)
خيتى الثالث (٢١٢٠ – ٢٠٧٠)
مرى كارع (٢٧٠ – ٢٠٥٠)

الأسرة الحادية عشرة (طيبة)
٢١٦٠ – ٢١٣٠
أنتف الأول (٢١٣٠ – ٢١٢٠)
انتف الثانى (٢١٢٠ – ٢٠٧٠)
أنتف الثالث (٢٠٧٠ – ٢٠٦٥)
(نهاية الأسرة العاشرة وبداية الأسرة الحادية عشرة متزامنتان)

الدولة الوسطى
(٢٠٦٥–١٧٨٥)

نهاية الأسرة الحادية عشرة (٢٠٦٥ – ٢٠٠٠)
منتوحوتپ الأول (٢٠٦٥ – ٢٠١٥)
منتوحوتپ الثانى (٢٠١٥ – ٢٠١٠)
منتوحوتپ الثالث (٢٠٠٧ – ٢٠٠٠)

الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ – ١٧٨٥)
أمنمحات الأول (٢٠٠٠ – ١٩٧٠)

سنوسرت الأول (١٩٧٠ – ١٩٣٦)
أمنمحات الثانى (١٩٣٨ – ١٩٠٤)
سنوسرت الثالث (١٨٨٧ – ١٨٥٠)
أمنمحات الثالث (١٨٥٠ – ١٨٠٠)
أمنمحات الرابع (١٨٠٠ – ١٧٩٢)
سوبك نفرو رع (١٧٩٢ – ١٧٨٥)

عصر الانتقال الثانى
(١٧٨٥ – ١٥٨٠)

الأسرة الثالثة عشرة (١٧٨٥ – ١٦٨٠)

خوتاوى – امنمحات – سوبك حوتب الأول
سى عنخ تاوى – سخم كارع
خوتاوى – پن من،
أمنمحات – سنبوف
أمينى – أنتف – أمنمحات
خوتاوى رع – وچاف
سنفر إيب رع سنوسرت
ثم توالى على عرش البلاد ٢٧ ملكاً يحمل العديد منهم لقب «خنچر» و«نفرحوتپ» ، سوبك حوتپ و«ديدومسيو». وتنتهى القائمة بحكم «نحسى».

وترتيب ملوك الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشر غير مؤكد. ومن الراجح أن العديد منهم قد حكموا البلاد فى نفس الوقت.

الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة (١٧٣٠ – ١٥٨٠)

(الهكسوس)

خيان

أبيبى الأول

أبيبى الثانى

عاقنن رع – أبيبى الثالث

الأسرة السابعة عشرة (١٦٨٠ – ١٥٨٠)

تضم خمسة عشر ملكاً يحملون فى الغالب اسم «أنتف» أو «سوبك إم ساف» وتنتهى الأسرة بحكم «سقنن رع» و«قاعا» و«كامس».

الدولة الحديثة
(١٥٨٠ – ١٢٠٠)

الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ – ١٣١٤)

أحمس (١٥٨٠–١٥٥٨)

أمنحوتب الأول (١٥٥٧ – ١٥٣٠)
تحوتمس الأول (١٥٣٠ – ١٥٢٠)
تحوتمس الثانى (١٥٢٠ – ١٥٠٥)
حتشبسوت (١٥٠٥ – ١٤٨٤)
تحوتمس الثالث (١٥٠٤ – ١٤٥٠)
أمنحوتب الثانى (١٥٠٤ – ١٤٢٥؟)
تحوتمس الرابع (١٤٢٥؟ – ١٤٠٨)
أمنحوتب الثالث (١٤٠٨ – ١٣٧٢)
امنحوتب الرابع – أخناتون (١٣٧٢ – ١٣٥٤)
سمنخ كارع
توت عنخ أمون
آى
حور محب

} ١٣٥٤ – ١٣١٤

الأسرة التاسعة عشرة (١٣١٤ – ١٢٠٠)
رمسيس الأول (١٣١٤ – ١٣١٢)
سيتى الأول (١٣١٢ – ١٢٩٨)
رمسيس الثانى (١٣٠١ – ١٢٣٥)
مرنپتاح
أمون مس

مرنبتاح – بى بتاح ١٢١٩ – ١٢١٠
سيتى الثانى
رمسيس سى بتاح
يارسو

الاضمحلال

الأسرة العشرون (١٢٠٠ – ١٠٨٥)
ست نخت (١٢٠٠ – ١١٩٨)
رمسيس الثالث (١١٩٨ – ١١٦٦)

رمسيس الرابع رمسيس الخامس رمسيس السادس رمسيس السابع رمسيس الثامن رمسيس التاسع رمسيس العاشر رمسيس الحادى عشر	١١٦٦ – ١٠٨٥

العصر المتأخر

الأسرة الحادية والعشرون (١٠٨٥ – ١٠٥٤)

سمندس (١٠٨٥ – ١٠٥٤)

حريحور

بسوسينس الأول (١٠٥٤ – ١٠٠٩)

پى نجم

أمون إم أوبه (١٠٠٩ – ١٠٠٠)

مى آمون (٦٠٠٠ – ٩٨٤)

بوسينس الثانى (٩٨٤ – ٩٥٠)

الأسرة الثانية والعشرون (٩٥٠ – ٧٣٠)

شاشانق الأول (٩٥٠ – ٩٢٩)

اوسركون الأول (٩٢٩ – ٨٩٣)

تكلوت الأول (٨٩٣ – ٨٧٠)

أوسركون الثانى (٨٧٠ – ٨٤٧)

شاشانق الثانى (٨٤٧)

تكلوت الثانى (٨٤٧ – ٨٢٣)

شاشانق الثالث (٨٢٣ – ٧٧٢)

پامى (٧٧٢ – ٧٦٧)

شاشانق الخامس (٧٦٧ – ٧٣٠)

الأسرة الثالثة والعشرون (٨١٧ ؟ - ٧٣٠)

پدى باست (٨١٧؟ - ٧٦٣)

شاشانق الرابع (٧٦٣ - ٧٥٧)

اوسركون الثالث (٧٥٧ - ٧٤٨)

تاكلوت الثالث

أمون رود (٧٤٨ - ٧٣٠)

أوسركون الرابع

الأسرة الرابعة والعشرون (٧٣٠ - ٧١٥)

تف نخت (٧٣٠ - ٧٢٠)

باك إن رنف (بكوريس) : (٧٢٠ - ٧١٥)

الأسرة الخامسة والعشرون (الكوشية) ٧٥١ - ٦٥٦

پى عنخى (پيبى) : (٧٥١ - ٧١٦)

شباكا (٧١٦ - ٧٠١)

طهرقا (٦٨٩ - ٦٦٣)

تانوت أمون (٦٦٣ - ٦٥٦)

ملحوظة : الأسرات ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ هى أسرات متزامنة فى جانب منها . وتواريخ الأسرة الثالثة والعشرين تقريبية إلى حد كبير.

الأسرة السادسة والعشرون (الصاوية) (٦٦٣ – ٥٢٥)

بسمتيك الأول (٦٦٣ – ٦٠٩)

نكاو (٦٠٩ – ٥٦٤)

بسميتك الثانى (٥٩٤ – ٥٨٨)

واح إيب رع (أپريس) : (٥٨٨ – ٥٦٨)

أحمس الثانى (أمازيس) (٥٦٨ – ٥٢٦)

بسمتيك الثالث (٥٢٦ – ٥٢٥)

الاحتلال الفارسى الأول

أو الأسرة السابعة والعشرون (٥٢٥ – ٤٠٤)

قمبيز (٥٢٥ – ٥٢٢)

داريوس الأول (٥٢٢ – ٤٨٥)

إكسركسيس (٤٨٥ – ٤٦٤)

ارتكسركسيس (٤٦٤ – ٤٢٤)

داريوس الثانى (٤٢٤ – ٤٠٤)

الأسرة الثامنة والعشرون

أميرتايوس (٤٠٤ – ٣٩٨)

الأسرة التاسعة والعشرون (٣٩٨ – ٣٩٢)

نايف – عاو – رود (نعريتس الأول) (٣٩٨ – ٣٩٢)

هكر (أكوريس) (٣٩٢ – ٣٨٠)
باموت (٣٨٠ – ٣٧٩)
نايف عاو رود (نفرتيس الثانى) (٣٧٩ – ٣٧٨)

الأسرة الثلاثون (٣٧٨ – ٣٤١)
نخت – نب – إف (نختنبو الأول) (٣٧٨ – ٣٦٠)
تايوس (٣٦١ – ٣٥٩)
نخت – نب – إف (٣٥٩ – ٣٤١)

الاحتلال الفارسى الثانى (٣٤١ – ٣٣٣)
أرتكسركسيس الثالث – أوخوس (٣٤١ – ٣٣٨)
أرسيس (٣٣٨ – ٣٣٥)
داريوس الثالث كودومان (٣٣٥ – ٣٣٣)
فتح الإسكندر (٣٣٢)
ملحوظة : عند إعداد هذا الجدول اعتمدنا على «قائمة التتابع الزمنى لملوك مصر التى نشرها چان ڤانديه J. Vandier فى كتاب «شعوب شرق البحر المتوسط ٢٠ : مصر».
Les Peuples de l'orient méditerranéen.. II. L'Egypte 4e éd. 1964.
وقد أثبتنا الأرقام الأولى التى وردت فى هذه القائمة، ومازال التتابع الزمنى – ولو فى تفاصيله – محل جدل بين المؤرخين الذين يميل بعضهم إلى خفض الأرقام الخاصة بالأسرات من الأولى إلى الثانية عشرة.

المراجع

(مراجع عامة باللغة الفرنسية)

BIBLIOGRAPHIE ببليوجرافيا

(Ouvrages généraux en langue française)

On trouvera un exposé très complet de l'histoire de l'Egypte et d'excellentes bibliographies pour chaque époque dans :

Etienne DRIOTON et Jacques VANDIER, *Les Peuples de l'Orient méditerranéen*. II. *L'Egypte*, 4e éd. augmentée, Presses Universitaires de France, 1962 ; 5e éd. anastatique, Paris, 1975.

Voir également :

G. JÉQUIER, *Histoire de la Civilisation égyptienne*, Paris, 1930.
A. MORET, *Histoire de l'Orient*, Paris, 1929 (bibliographies).
— *Le Nil et la Civilisation égyptienne*, Paris, 1926.
BREASTED, *Histoire de l'Egypte* (traduit de l'anglais), Bruxelles, 1926.
S. SAUNERON, *Nous partons pour l'Egypte*, Presses Universitaires de France, 1966.
— *Les prêtres de l'ancienne Egypte*, Paris, 1957.
P. MONTET, *La vie quotidienne en Egypte au temps des Ramsès*, Paris, 1946.
G. POSENER, S. SAUNERON, J. YOYOTTE, *Dictionnaire de la Civilisation égyptienne*, Paris, 1959.
J. PIRENNE, *Histoire de la Civilisation de l'Egypte ancienne*, Paris, 1961-1963.
F. DAUMAS, *La Civilisation de l'Egypte pharaonique*, Paris, 1965.
C. DESROCHES-NOBLECOURT, *L'art égyptien*, collection « Les Neuf Muses », Presses Universitaires de France, 1962.
Les Pharaons, vol. I : *Le temps des pyramides*, Paris, 1978, « Univers des Formes ».
« Univers des Formes ». *Les Pharaons* :
Vol. I : *Le temps des pyramides*, Paris, 1978 ;
Vol. II : *L'empire des conquérants*, Paris, 1979 ;
Vol. III : *L'Egypte du crépuscule*, Paris, 1980.
J. VANDIER, *La religion égyptienne*, coll. « Mana », Paris, Presses Universitaires de France, 1943.
J. VERCOUTTER, *A la recherche de l'Egypte oubliée*, Paris, Gallimard, 1986.

فهرست الكتاب

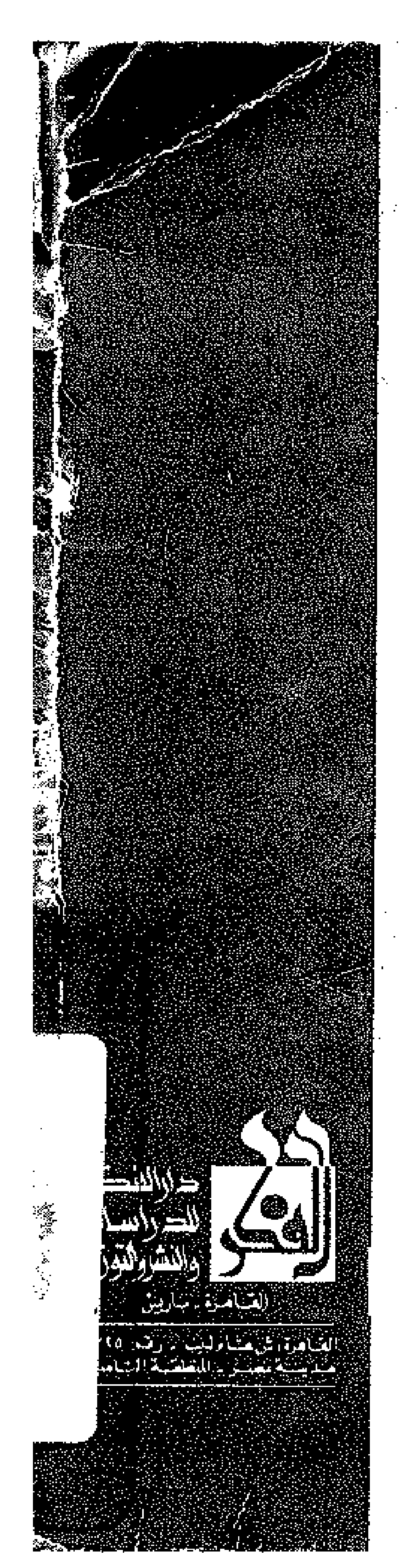
صفحة

الملاحق

رقم الإيداع : ١٠٥٦٥ / ٩٣

I.S.B.N.: 977 - 5091 - 15 - 2





صدر هذا الكتاب في باريس لأول مرة عام ١٩٤٦، وظل يعاد طبعه مرارا، حتى صدرت الطبعة الثالثة عشرة منه في أكتوبر ١٩٩٠، منقحة ومصححة في ضوء الاكتشافات الحديثة. ومن هنا، وإن جاء ذلك متأخرا، كان لابد أن تصدر الطبعة العربية الأولى منه.

إن عالم مصريات كبير وفذ، مثل جان ڤيركوتير، الذي قضى سنين عديدة في مواقعنا الأثرية، يدرس، ويمحص، ويقارن، لقادر على أن يعطينا تاريخ مصر القديمة منذ عصر ماقبل الأسرات وحتى فتح الإسكندر، بشكل مركز في مثل هذا الكتاب الصغير، دون أن يهمل خيطا واحدا من خيوط هذا التاريخ.

وخلال هذا التاريخ الطويل الذي شهدت فيه مصر أمجادا، وعانت من إخفاقات، وتعرضت لكل صروف الحياة، من حروب أهلية وفوضى، ومجاعات وغزوات أجنبية وصراعات دينية، سعت مصر دائما إلى البحث عن إجابات لكافة المعضلات التي ما فتئت تتسلط على ذهن الإنسان.

هكذا يقول المؤلف.

" الناشر "

الثمن 